

احمد عظیم آبادی

مغامرات موشہاوزن



مغامرات موشهاوزن

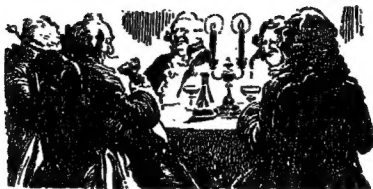
قلها عن الألمانية

أحمد عطية السيد

[القاهرة]

مكتبة نوا الطبع والنشر
دار إحياء التراث العربى
عيسى البابى الحلبي وشركاه





الليلة الأولى

جلس البارون فون مونسهاوزن بين أصدقائه من هواة الصيد؛
وأخذ يفرُّك يديه كمادته كلما جاشت نفسه ببعض الخواطر واستثارت
بعض ذكريات الفروسيّة . وبعد أن فرغ من طعامه وشرابه أخذ
يدورُ بعينيه ويتسمُّ ابتسامةً ساخرةً ، وكأنّه أراد أن يعقدَ أبصار
الجالسين حوله رغبةً منه في تشويقهم لما سيقصه عليهم ويرويّه لهم .
حتى إذا شمل السكون المجلس بدأ « البارون فون مونسهاوزن »
حديثه قائلاً :

— أصدقائي الأعزاء ، ويا رفاق الصيد !

أعودُ بكم مرةً أخرى إلى الماضي لأقصَّ عليكم طرفاً من أخبارِ مغامراتي . فقد كنتُ أيُّها السادةُ في يومٍ من الأيامِ شاباً ممتلئاً قُوَّةً شديدةَ المراسي لا أعبأ بالمخاطرِ ولا تثني عزييتي الأهوالِ والمغامراتِ ، ويكفي أن أقصَّ عليكم مثلاً من هذا الماضي الطريفِ :

حدث في مساء أحدِ الأيامِ وقد كادت الشمسُ أن تختفي وراء الأفقِ أن كنتُ عائداً إلى بيتي بعدَ نهارٍ طويلٍ قضيتُهُ في الصيدِ حتى حطَّ على التعبِ ، وملاً عيوني النومُ ، ممتطياً صهوةَ جوادِي الأشهبِ ، بيدَ أنني لم أكن أحسُّ من شدةِ التعبِ بما يدورُ حولي ولم أتنبهَ إلا وقد وقفَ جوادِي فجأةً على حافةٍ مستنقعٍ .

نظرتُ يمينا ويساراً فإذا بالطريقِ قد انتهت عند حافةِ هذا المستنقعِ ، ولكنها كانت تستمرُّ بعدَ ذلك ؛ فتذكرتُ حينذاك أن الأمطارَ التي كانت تهطلُ بغزارةٍ منذ بضعةِ أسابيعٍ لا بُدَّ وأنها سببتَ هذا الفيضانَ الذي غمرَ الطرُقَ واكتسحَ الجسورَ . فلم يكن أمامي إلا أن أفكرَ في التبوُّ والساعةِ في وسيلةٍ أخرى للوصولِ إلى بيتي .

أيحوزُ لي أن أعودَ من حيثُ أتيتُ لأبحثَ عن طريقٍ آخرٍ ؟ لا ! إن هذا الحلَّ لا يرضيني : لم أقلبَ الرأيَ طويلاً بل نكأتُ الجوادَ

بهمازى فارتفع على ساقيه الخلفيتين وماهى إلا ثانية حتى كنت ولياًه
فى الهواء، مع أن جوادى كان بادى الإجهاد بعد نهار حافل بالصيد الوفير
(إذ أن جملة ما صدته فى ذلك اليوم كان عشرين أرنبا - أو قل - ثلاثين
على الأقل، وهذا ما سأحدثكم به فيما بعد).

كان عرض هذا المستنقع لا يقل عن عشرين ذراعاً وكان على
جوادى أن يقفز ست مرات على الأقل ليصل إلى حافته الأخرى،
فوكزته من جديد فاندفع نحو المستنقع ولكنه لم يسر طويلاً حتى
انفرست سيقانه فى الوحل وكلما حاولت أن أدفعه إلى الأمام كلما أخذ
ينوص فى الطين ولم تمض دقائق حتى كاد يخنق، فلم يبد منه إلا غنقه!

ليس هنالك سبيل للنجدة! فإذا تظنون يا أصدقاى قد جال
بخطايرى فى تلك اللحظة؟ لقد كانت فكرة جريئة ولكنها انتهت بنجاح!
لم أنتظر طويلاً بل ألصقت ركبتي بظهر الجواد حتى أصبحت
وكأني مسرّبه، ثم أمسكت جدائل شعرى يدي اليمنى التى كانت
خالية طليقة، ثم جذبت نفسى جذبة قوية إلى أعلى فأنسلت بذلك
سيقان الجواد المنروسة فى الطين، وكان من شدة الجذبة أن ارتفعت ولياًه
فى الهواء، وما أن أحسن الجواد بحريته حتى أخذ فى القفز، وما أن وصل

إلى حافةِ المسنقعِ حتى أخذَ يركضُ ذوّناً يتوقّفُ حتى وصلنا سالمينَ إلى البيتِ .

...

إن الصيادَ البارِعَ ، يَسَادَتِي ، لا يقلُّ ذكاءً ولا نبوغاً عن القائدِ العسكريِّ الذى يحاولُ أن يفتحَ عَنوةَ مدينةٍ من المُدُنِ المحصّنةِ التى امتنعَ عدوّهُ بأسوارِها وأبراجِها . إن الصيادَ البارِعَ كالقائدِ البارِعِ يحتاجُ كلاهما إلى شِدَّةِ اليقظةِ والافتنانِ فى ابتكارِ الوسائلِ التى توصلُهُ إلى غايتهِ وتذليلِ العقباتِ المفاجئةِ .

فقد يحدثُ أن يفاجأَ الصيادُ بفقدِ ما معه من الرصاصِ ، فيُشكِلُ عليه الأمرُ إذ أن البارودَ وحدهُ لا يَكُنِي لإطلاقِ البُنْدُقيَّةِ ، عندَ ذلكَ تبدو قدرةُ الصيادِ وبراعتهِ . وإني لأقصُّ عليكم حكايةً على سبيلِ المثالِ . حدثَ فى ذاتِ صباحٍ أن كنتُ أنظرُ من نافذةِ القصرِ الذى أَعِيشُ فيه ، وكانَ إلى جِوارِهِ بُرْكةٌ فسيحةٌ فإذا بها مُغطّاةٌ بأسرابٍ من الإوزِ البريةِ !

وأنا - كما تعلمونَ - من الناسِ الذين لا يُعْتَنُونَ بالزينةِ والتجميلِ فى كلِّ صباحٍ ، لهذا ما وقعَ نظرى على هُذا السربِ من الطُيورِ حتى



مَرَوْتُ مِنْ مَكَانٍ وَحَمَلْتُ بِنْدُقيَّ عَلَى كَتِفِي وَانْدَفَعْتُ نَازِلًا حَتَّى أَتَيْتُ
 لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ مَوْضِعَ دَرَجَاتِ السَّلَامِ ؛ إِذَا جِئْتُ نَشِوَةَ عَجِيْبَةٍ فَلَمْ
 أَتَوَقَّفْ ثَانِيَةً حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى الْبَرَكَةِ .

وَلَكِنِّي عِنْدَ مَا حَاوَلْتُ أَنْ أُعْمَرَ بِنْدُقيَّ وَجَدْتُ أَنِّي نَسِيتُ

الرماس، لهذا أعملتُ فِكْرِي في وسيلةٍ لِإِشْعَالِ البارودِ؛ فتحتُ غطاءَ
خِزَانَةِ البَنْدُوقِيَّةِ وَأَسْنَدْتُ خَشْبَتَهَا إِلَى خَدِّي، عِنْدَ ذَلِكَ جَمَعْتُ قَبْضَةً
بِيَدِي وَأَهْوَيْتُ عَلَى عَيْنِي بِمُخَبَّطَةٍ قَوِيَةٍ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي حَرَّكَتُ فِيهَا زِنَادَ
البَنْدُوقِيَّةِ . فَا أَمْلَتُهُ وَانْتَبَهْتُ حَدَثَ بِالْفِعْلِ ، إِذْ مِنْ أَثَرِ تِلْكَ الْمَخَبَّطَةِ
القُوَّةِ الَّتِي هَوَيْتُ بِهَا عَلَى عَيْنِي انْبَعَثَ شَرَرٌ كَافٍ أَشْعَلَ تَرَابَ الْبَارودِ،
فَانْطَلَقَتِ الْبَنْدُوقِيَّةُ وَأَصَابَتِ الْمَدْفَ فَبَلَغَ نَصِيبِي مِنْ هَذِهِ الطَّلَقَةِ ثَلَاثِينَ
إِوْزَةً بَرِيَّةً .

...

وَفِي مَرَّةٍ أُخْرَى خَرَجْتُ لِأَجْرَبَ بَنْدُوقِيَّةً جَدِيدَةً فِي بَعْضِ الْحُقُولِ
فَأَخَذَ كُلِّي يَطَارِدُ سَرَبًا مِنَ السَّمَانِ حَتَّى شَالَ مِنْ مَوْضِعِهِ وَحَطَّ فِي
مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنِّي - فَثَارَتْ فِي نَفْسِي رَغْبَةٌ مُلِحَّةٌ لِاقْتِنَاصِ بَعْضِهِ - إِذْ
كُنْتُ فِي مَسَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ قَدْ دَعَوْتُ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِي لِتَنَاوُلِ الْعِشَاءِ
مَعِي - وَالثَّمَانُ كَمَا تَعْرِفُونَ مِنَ الطُّيُورِ الَّتِي تَصْلُحُ لِإِعْدَادِ طَبَقٍ فَائِخِرٍ
عَلَى الْمَائِدَةِ .

وَلَكِنْ سَوَاءُ الْحَظِّ كَانَ مُلَازِمِي إِذْ أَتَيْتُ وَجَدْتُ جُرَابَ الْخُرْطُوشِ
خَالِيًا؛ وَلَكِنِّي لَمْ يُسْقِطْ فِي يَدِي، بَلْ حَشَوْتُ الْبَنْدُوقِيَّةَ بِتَرَابِ الْبَارودِ



وسدّدتُ الموضعَ بقطعةٍ من القلّينِ ثم برّيتُ مدكّةَ البارودِ حتى
أصبح طرّفها كقلم الرصاصِ، وأتقدّتها إلى مكانِ البارودِ وأخسنتُ
أكرّزُ ذلكَ حتى اشتعلَ، فانطلقتِ البندقيةُ - وهكنا حققتُ أمنيّتي
فعدتُ إلى البيتِ ومعي اثنتى عشرةَ مائةً.

...

والصيادُ الماهرُ، يا أصدقاءى الأعزاء، ليس من الضروريّ أن يكونَ
عبداً لبندقيته في كلِّ مرّةٍ. بل إنه قد يبلغُ غايتهُ باستخدام ما يقعُ في يدهِ

مُصادفةً . وأضربُ لكم مثلاً ما جرى لي في بلادِ إثواليا إذ خرجتُ ذاتَ مرّةٍ أضربُ في الغاباتِ وقد حملتُ بُندقيتي على كَتفي بينما كنتُ أعْبَثُ بِمِسامِرٍ كبيرٍ بينَ أصابعي . وعلى حينِ غفلةٍ ظهرَ أمامي ثعلبٌ ذوفروءٍ سوداءَ جميلةٍ وأخذَ يقتربُ إلى ناحيتي دونَ أنْ يراني .

لقد كانت فروءُ ذلك الثعلبِ فاخرةً ثمينةً حتى أنني وجدتُ من خطلي الرأي أن أطلقَ عليه رصاصةً تُمزِّقُ هذه الفروءَ الجميلة . انتظرتُ قليلاً فرأيتُ الثعلبَ يلجأُ إلى جذعِ شجرةٍ من شجرِ البلوطِ وهو هادئٌ يدورُ برأسِهِ ذاتَ اليمينِ وذاتَ اليسارِ ؛ عندَ ذلكَ مرّتُ برأسي فكرةٌ بديمةٌ ، فسرتُ على أطرافِ أصابعي واختفيتُ وراءَ شجرةٍ قريبةٍ ونزعتُ الخرطوشةَ من بُندقيتي في هدوءٍ ووضعتُ في مكانها ذلكَ المِسمارَ فلما تمَّ ذلكَ سَدَدْتُ البندقيةَ صوبَ الثعلبِ وأطلقتُها : أَتَدْرُونَ يا سادتي ما حدثَ ؟

نظرتُ فوجدتُ الثعلبَ في مكانه لم يتحرَّكْ إذ أنه تَسَمَّرَ بِجذعِ الشجرةِ وقد نفَذَ ذلكَ المِسمارُ في ذيلِهِ . عندَ ذلكَ أخرجتُ سكينَ الصيدِ وتسلَّختُ بِكُرْباجِ الكلابِ واقتربتُ من الثعلبِ في اطمئنانٍ ، وأخذتُ أسلُخُ فَرْوَهُ الثمينَ وكأني كنتُ أخْلَعُ قِيعاً ، حتى إذا أصبحَ حارياً

أُطْلِقْتُ سَرَاحَهُ فَرَّاحَ يَمْدُو إِلَى النَّابَةِ حَيْثُ رَفَاقُهُ مِنَ الثَّمَالِبِ ، الَّتِي
جَمَلَتْهُ مَوْضِعَ سَفَرِهَا وَفُكَاةَهَا ! وَلَكِنْ مِنْ يَدْرِي فَلَرُبَّمَا بَنَتْ لَهُ
فَرَوْجٌ جَدِيدٌ بَعْدَ ذَلِكَ !

أَرَأَيْكُمْ تَضْحَكُونَ يَا أَصْدِقَائِي ! وَلَكِنْ حُسْنُ الْحِظِّ كَانَ حَلِيفِي
بِسَبَبِ ذَلِكَ السَّجَّارِ الَّذِي كُنْتُ أَجْمَلُهُ فِي يَدِي مُصَادِفَةً وَلَوْلَا ذَلِكَ
مَا نَجَحْتُ فِكْرَتِي .

بَعْدَ هَذَا الْحَادِثِ بِأَيَّامٍ كُنْتُ فِي طَرِيقٍ مَائِدًا إِلَى الْبَيْتِ ، وَكَانَ
الْبَارُودُ قَدْ فَرَّغَ مِنِّي ، وَبَيْنَا أَنَا كَذَلِكَ إِذَا بِمُخْزِرٍ بَرِّيٍّ هَائِجٍ يَطْلُعُ
عَلَيَّ - وَكُنَّا يَعْرِفُ الْفَرْعَ الَّذِي يَتَمَلَّكُ النَّفْسَ لِمِثْلِ هَذِهِ الْمَفَاجَأَةِ -
لِهَذَا لَا أَظُنُّ فِيكُمْ مَنْ يَلُومُنِي عَلَى أَنِّي حَاوَلْتُ الْهَرَبَ مُتَلَجِّجًا إِلَى
أَقْرَبِ شَجَرَةٍ .

كَانَتْ تِلْكَ الشَّجَرَةُ الَّتِي احْتَمَيْتُ بِهَا صَغِيرَةً غَضَّةً حَتَّى كَادَتْ
غَصْبُونُهَا تَنْوِي بِحِمْلِي ، وَمَا كَدْتُ أُسْحِبُ سَاقِي مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ حَتَّى
كَانَ ذَلِكَ الْخُزَيْرِيُّ يَهْجُمُ عَلَى الشَّجَرَةِ ، لَهَا نَجْوَتْ بِأَعْجُوبَةٍ مِنْ قَتْلِهِ بِي .
وَلَمَّا كَانَ قَدْ جَاءَ مُنْدَفِعًا بِقُوَّةٍ هَائِلَةٍ صَوَّبَ الشَّجَرَةَ انْفِرَسَتْ نَابَاهُ
الطَوِيلَتَانِ فِي جَذْعِهَا النُّصَّ حَتَّى بَرَزَ طَرَفَاهُمَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ بِمَقْدَارِ
قِرَاطٍ !

لم أَفَكِّرْ طويلاً بل هبطتُ من الشجرة وبحثُ عن قطعة من
حَجَرِ الصَّوَانِ بردتُ بها الطرفينِ الناتئينِ من نابِيِ الخنزيرِ ، ومن ثمَّ
عُدْتُ إلى يَتَى .

وفي اليومِ التالى انكفأتُ راجعاً أَهْلُ بَنَدِيقِي في صحبةِ جماعةٍ من
الفلاحينَ معهم عَرَبَةٌ ثَقُلَ ؛ ولم أَسْأَلْ نَفْسِي كَيْفَ قَضَى غَرَبِي لَيْلَتِهِ
مُسْتَرّاً بِجَنْعِ الشجرةِ ، بل اِكْتَفَيْتُ بِطَلْقَةِ من بَنَدِيقِي ضَوْبَتُهَا إِلَى
جَبْهَتِهِ . وأى حيوانٍ ماردٍ كانَ ذَلِكَ الخنزيرُ ؟ ! إِنَّ أَعْرَفَ النَّاسِ بِشُئُونِ
الصَّيْدِ لَيْسْتَ حَيْلُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَصَوَّرَ صَخَامَتَهُ ، إِذْ بَلَغَتْ زَيْتُهُ خَمْسَةَ أَطْنَانِ ،
وإِنَّ ذَلِكَ لَشَيْءٌ نَادِرٌ بَيْنَ الْخَنَازِيرِ الْبَرِيَّةِ .

السيدة الثانية

لَا رَبَّ أَنْكُمْ سَمِعْتُمْ يَا أَصْدِقَائِي عَنْ الْقَدِيسِ « هُوبَارْتِس » رَاحِي
الصَّيَادِينَ . كَمَا سَمِعْتُمْ وَلَا شَكَّ عَنْ ذَلِكَ الْوَعْلِ الْعَجِيبِ الَّذِي رُمِمَتْ
بَيْنَ قَرْنَيْهِ عَلَامَةٌ مُقَدَّمَةٌ رَاطِمَةٌ . وَقَدْ جَمَلْتُ مِنْ عَادَتِي أَنْ أُحْيِيَ
حَيْدَ هَذَا الْقَدِيسِ فِي الثَّالِثِ مِنْ شَهْرِ نُوفَمْبَرٍ مِنْ كُلِّ سَامٍ وَأَقْدَمْتُ إِلَيْهِ
الْقَرَايِينَ . كَمَا قَدِمْتُ آلَافًا مِنَ الْمَرَاتِ الْعَلِيقِ إِلَى هَذَا الْوَعْلِ مِنْ فَاكْهَةِ
الْكَرْزِ .

وَلَمَّا لَأْتُكَ أَمْرَهُ لِأَحَدَتِكُمْ بِحِكَايَةِ جَرَّتْ لِي مَعَ وَعْلٍ عَجِيبٍ آخَرَ:
فَقَدْ حَدَثَ مَرَّةً أَنْ صَادَفْتُ وَعْلًا نَادِرًا فِي بَعْضِ الْبَرَارِيِّ وَكَانَ جَرَابِي
قَدْ خَلَا مِنَ الْبَارُودِ ، وَلَعَلَّ الْوَعْلَ عَرَفَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ اقْتَرَبَ مِنِّي دُونَ أَنْ
يَتَوَجَّسَّ مِنِّي خِيفَةً ، وَأَخَذَ يَحْدِثُنِي بِنَظَرِهِ هَادِئَةٍ مُسْتَقَرَّةٍ .

فَأَمَّا مَنْظَرُهُ عِنْدِي فَفِكْرَةٌ عَجِيبَةٌ ، عِنْدَ ذَلِكَ فَتَحْتُ خِزَانَةَ بُنْدُقِي
وَمَلَأْتُهَا بِمُخَفِّةٍ مِنْ نَوَى الْكَرْزِ - إِذْ كُنْتُ أُنْسَلِّي بِأَكْلِ بَضْعَةِ أَرْطَالٍ
مِنْهُ - وَكَانَ الْوَعْلُ يَنْظُرُ إِلَيَّ وَكَأَنَّهُ يَنْتَسِمُ سَاخِرًا ، فَصَوَّبْتُ بُنْدُقِي
الْمَحْشُوءَةَ بِالْكَرْزِ نَحْوَهُ وَأَمْلَقْتُهَا بَيْنَ قَرْنَيْهِ . فَأَخَذَ الْوَعْلُ يَنْفَضُّ نَفْسَهُ

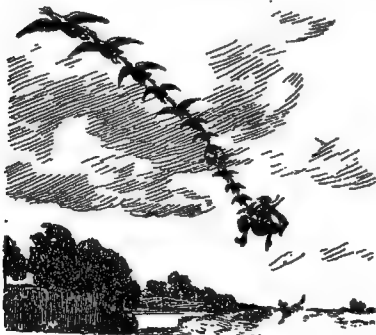
ويهرز رأسه مراتٍ عدة ويحنى عنقه وكأنه ينحنى إلى مسلماً ، ثم أولاني ظهره واختفى في الغابة . وكَم أَسِفْتُ لَأَنِّي لَمْ أَجِدْ مَا أَقْنِصُ بِهِ هَذَا الْوَعِلَ النَّادِرَ ، وَكَانَ مَا فُكِّتُهُ مَعَهُ مِنْ بَابِ الْفِكَاهَةِ الْلطِيفَةِ ، حَتَّى أَنَا كُنَّا إِذَا أَكَلْنَا كَرَزًا بَعْدَ ذَلِكَ أَخَذَ بَعْضُ الْمُتَفَكِّهِينَ مِنْ أَصْدِقَائِي يَجْمَعُ نَوَى الْكَرَزِ كَذَخِيرَةٍ لِي إِذَا مَا خَرَجْتُ لِصَيْدِ الْوَعُولِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . وَلَكِنْ سُرْمَانٌ مَا أَصْبَحْتُ هَذِهِ الْأَفْكُوهُةَ مُثَلَّةً مَجْجُوجَةً .

ثم حدث بعد ما مِينَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ كُنَّا نَصْطَادُ فِي تِلْكَ الْبَرِّيَّةِ نَفْسِهَا ، وَإِذَا بَوَّعَ نَادِرٍ الْمَثَالِ يَهْرُزُ أَمَامَنَا وَقَدْ نَبَتَتْ عَلَى ظَهْرِهِ شَجَرَةٌ بَلَغَ ارْتِفَاعُهَا نَحْوًا مِنْ عَشْرَةِ أَقْدَامٍ . فَتَذَكَّرْتُ بِالطَّبِيعِ حِكَايَةَ الْبُنْدُقِيَّةِ الْمُحْشَوَّةِ بِنَوَى الْكَرَزِ ، كَمَا أَحْسَسْتُ بِأَنِّي الْمَالِكُ الشَّرْعِي لِهَذَا الْوَعِلِ بِمَا يَحْمِلُ ، لِذَلِكَ أَسْرَعْتُ وَأَطْلَقْتُ عَلَيْهِ رَصَاصَةً مِنْ بَنْدُقِيَّتِي فَخَرَّ فِي التُّوْصَرِ مَا ، فَكَانَ سَبَبًا لَوْلِيَّةٍ فَاخِرَةٍ مِنَ الشَّوَاءِ وَالْخَلْوَى ، إِذْ أَنَّ تِلْكَ الشَّجَرَةَ الَّتِي عَلَى ظَهْرِهِ كَانَتْ حَمَلَةً بِأَطْيَبِ الْكَرَزِ الشَّهِيِّ ، الَّتِي نَبَتَتْ شَجَرَتُهُ مِنْ ذَلِكَ النَّوَى الَّتِي أَطْلَقْتُهُ عَلَى الْوَعِلِ مِنْذُ سَنَتَيْنِ .

نَمِ كَمْ ذَا يَقَابِلُ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَائِبِ ! وَإِنِّي لِأَذْكُرُ لَكُمْ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ حِكَايَةَ غَرِيْبَةٍ فَلَا . فَصَيْدُ الْفَيْرَانِ بَطْعَمٌ مِنَ لَحْمِ الْخَنْزِيرِ أَمْرٌ

معروف، ولكنكم لم تسمعوا كيف اصطلت ثلاث عشرة بطّة بقطعة
من لحم الخنزير.

فقد حدث ذات صباح أن كنتُ أعد نفسي لرحلة طويلة، وبينما
أنا في الطريق مررتُ بحيرة صغيرة يسبح فيها سربٌ نافر من البط، ولم
يكن معي إلا طلة واحدة لا تصيب إلا بطّة واحدة، ثم تفرق هذا السرب
على وجه الماء، ولكنني صممت على اقتناصه جميعاً، إذ كنت في تلك الليلة
قد دعوت جماعة من الأصدقاء للعشاء.



كان ذلك اليوم مشغولاً من مطلعه إذ قابلتُ في صباحه «كاترين»
تلك الساحرة العجوز ذات الشعر الأحمر، فالتفتي اليوم دون أن يواتيني

الحظُّ في الصيد . وما أنذا وليس ممي إلا طلقة واحدة وقد قد البارود
دون رَجْمَةٍ ، فإذا أنا صانع بهذه الطلقة الفريضة وأماى الصيد وفير ؟
ويدنا أنا أحاولُ حلاً لهذه المشكلة تذكَرتُ قطعةً من لحم الخنزير
كنتُ أحملها زاداً ليومى هذا فأخرجتها من جرابى ومددتُ حبلاً
طويلاً كان ممي وعقدتُ به قطعة القديد كما فعل صياد السمك ، وألقيتُ
بطرفه في الماء ثم اختفيتُ وراء حشائش الشاطئ وطفقتُ أشاهدُ البطة
الأولى وهى تقرب من الخيط ، وما أسرع أن ازدردتُ قطعة القديد ، ولما
كانت عِسرَةَ المضم أخرجتها بعد قليلٍ دون أن تهضمها ، وبقي الخيطُ
في جوفها ؛ فما أن برزت من مؤخرها حتى بلتها البطة الثانية التى لفظتها
بعد قليلٍ دون أن تهضمها ، وبقي الخيطُ في جوفها ، وهكذا حتى
ثلاث عشرة بطة نُضدت في الخيط كما يُنضدُ خرزُ العقد .

أحسستُ بلذّةٍ عميقة لهذا النجاح ، فشددتُ طَرَفَ الحبلِ حولي
وسحبتُ الصيدَ من خلفي عائداً إلى البيت ، يَدُ أنى أخذتُ أحسُّ
شيئاً فشيئاً بأن الطيور بدأت تقزعُ وتهيجُ . وما هى إلا لحظة حتى
وجدتُ نفسى مُرتفعاً في الهواء . وما حدث هو أن هذه الإوز البرية التى
كانت ما زالت حيةً بعد أن أصابها ما أصابها ، أخذت تُرفرفُ بأجنحتها

ثم تطيرُ جماعةٌ غفلتني معها وارتفعت بي في الهواء .

وبعد أن زالت عني غمةُ الدهشة استملتُ إتراني فنشرتُ ذيلَ منطني الكبير في الهواء كالشراع ، وأخذتُ أديرُهُ كما أديرُ دفةَ القارب متجهاً صَوْبَ منزلي ، ولما اقتربتُ من مدخنة البيت مرّت برأسي فكرةٌ جريئةٌ ، فأخذتُ أهضُرُ رقبةَ الإوزِ وَرَّةً وَرَّةً ، وهكذا بدأتُ أهبطُ رُزَيْدًا رُزَيْدًا حَتَّى حططتُ على المدخنة ، وما أن رآني الطاهي حتى تمكّنته الدهشة ، وكان في ذلك الوقت يوقِدُ النارَ إعدادًا للشاء . وكان رفيقي في هذه الرحلة العجيبة كلبِي بيكاس ، وهو كلبٌ صيدٍ ماهرٍ ، فأخذ ينبئني وهو يهزُّ رأسه في عنفٍ وانزعاجٍ ، ولم يصمتْ عن التبأحِ ونبشِ الأرضِ حَتَّى أشاعَ الاضطرابَ في حظيرة الماشية : نعم ، نعم إن قدينةً من اللحمِ التي تصيدُ الفئرانَ اصطاد بها مونثها وزن الإوزِ !

ومن المحقق أن الحظَّ والعُدفةَ المحضةَ كانتا سببًا في نجاحي ولكن ليس ذلك قاعدةً مطردةً ، إذ قد يجرُّ الخطأُ في بعض الأحيان إلى حظٍّ غير مقصودٍ .

...

لقد حدث مرةً أني صادفتُ في غاية من الغاباتِ عجلاً برياً تقبَّه
 أنه، فرفست بندقيتي بيد أني تَرَدَّدْتُ بينهما، فلم أَقَرَّرْ أَيُّهُمَا الَّذِي أَجْعَلُهُ
 هِدْماً، ولكن بعد فترةٍ من هذا التردُّدِ انطلقتِ البندقيةُ فإذا بالصغيرِ
 يفرغُ ويهربُ مسابقاً للريحِ، أما الأثمُ فقد وقفت جامدةً في مكانها
 وكأنَّها تبحثُ عن شيءٍ ما حولَ المكانِ . ولما اقتربتُ منها وجدت
 بين أسنانها خصلةً من ذنبِ صغيرها ؛ ولما دَقَّقْتُ النظرَ وجدتُها
 - وبألفرايةٍ - عميةً !

وبالطبع لم أتردَّدْ، بل تقدَّمتُ إليها وأمسكتُ بطرفِ الخصلةِ
 وسحبتُ الأثمَ ورأيتُ حتى وصلتُ إلى منزلي، فلما رأيتُ زوجتي هذه البقرةَ
 الوحشيةَ أمامها تدخلُ المطبخَ تولاها الذمُّ .

...

وقد يبعد الإنسانُ نفسه في بعضِ الأحيان في مأزِقٍ من المآزِقِ التي
 لا تُجدي حيلةً من الحيلِ للتخلصِ منه إلَّا فيما ندر، كما حدثَ مرَّةً عند
 ما اعترض طريقِي في غاية من غاباتِ بولندا دبٌّ شرِسٌ، وقد أَمْسَى المساءُ
 وقد منى البارودُ .

أخذَ هذا الحيوانُ الكاسِرُ يقتَرِبُ مني وقد مدَّ ذراعيه وفتحَ فمه،

بينما كانت الأفكارُ تزاحمُ في رأسي لعلّي أهندي إلى وسيلة للنجاة، وما كنت أدري ما وطن عليه العزم : أيهصرني بين ذراعيه ، أم يُفَتِّتُ رأسي بنطحه قاتلة ! وكانت أصابعي تعبثُ في جيوبِي باحثة عن رصاصة أطلقها عليه ، ولكنني لم أجد إلا بضعة أحجارٍ من أحجار الزنادِ كنت أحملها لشأنٍ من شئونِي .

وأخذ الدبُّ يقتربُ مني رويداً رويداً حتى بدأتُ أحسُّ بزفراته الحارّةِ تلمح وجهي ، فإكان مني إلا أن قذفتُ بحجرٍ من هذه الأحجارِ في فيه المفتوح ، ولا شك في أن ذلك قد آذاهُ بمض الشيء لأنه استدار إلى يساره وأخذ يعمى بصوتٍ يدلُّ على الألم البالغ ، وكانت هذه الحركة سريعةً للغاية، حتى أنني عند ماصوبت قطعة الحجر الأخرى كان قد ولّاني ظهره فأصابته دُبْرُهُ !

وما هي إلا بضعة ثوانٍ حتى كان الحيران قد تقابل في جوف الدبِّ وقدح الواحد منهما الآخرَ فأشعل في جوفه نارا ، فأخذ الدبُّ يُرْجِرُ ويتلوى من شدة الألم ثم اتعجر بقوة عنيقة ؛ عند ذلك تنفست الصعداء إذ نجوتُ من خطرٍ محققٍ ؛ فطلعتُ بعد هذه التجربة أن أكون دائماً على قَدَم الاستعدادِ للدفاع عن نفسي إذا حدثت وعدت ثانية إلى بولندا ، إذ أن

الدية تنتشرُ بها كما تنتشرُ عندنا الصرايرُ في الربيع .

...

حدث في وارسو أن عقدت الصبحة بقائِد بولوني مشهور، تعرفون اسمه ولا شك ، وهو الجنرال « سِكرَبُودَانِسكى » الذى اشترك في الحرب التركىَّة وأصيبَ بِشَظِيَّةٍ فِي عَظْمٍ مُجْتَمِعَةٍ فاستعاضَ عنها برقيقة من الفضة . وكنا نتقابلُ في كلِّ يومٍ في حانة حيثُ كانَ يحضى النبيذَ بِسَراهِة .

ومما أثارَ عجبى أن الجنرالَ إذا ما ارتفعت الحُرُّ المجرىةُ إلى رأسِهِ وأصبحت وجوهنا حمراءَ قانيةً بفعلِ النبيذِ المُعْتَقِ، كان من عادته أن يرسلَ أصابعه تجوسُ خلالَ شعرِهِ، وما أن تمضى دقيقةٌ حتى يحتنى احتقانُ وجهِهِ ويعودَ إلى صحوهِ من جديدٍ، ولم يحذِ رقائنا في ذلكَ أمراً غيرَ عادى ؛ وسرُّ ذلكَ أن الجنرالَ إذا ما بدأ يفقد وعيَهُ يحركُ الرقيقةَ الفضيةَ التى تعطى كسرةَ الجمجمةِ من مكانها حتى يتمزب منها بخارُ النبيذِ .

ولكى أزدادُ اقتناعاً بحقيقة الأمرِ جلستُ مرَّةً إلى جانبِ الجنرالِ كاهى عادى، وأشعلتُ ثقاباً ولكتى بدلاً من أن أوقدَ به غليونى قربته إلى رأسِ الجنرالِ المخمورِ فإذا بلهيبٍ أزرقٍ لطيفٍ ينبعثُ من مكانِ الفتحَةِ .

ولما لحظَ الجنرالُ هذه المناورةَ تركنى وشأنى وأخذَ يتنمَّ باغتباطٍ،
فبدأ فى تلك الساعةِ كأنه القديس نيقولا تحيط به هالةٌ من النور .
وقد أعجبتنى هذه الفكرةُ جدًّا لطرافتها، لذلك رحلت إلى أحد الصاغةِ
المشهورين بالبراعةِ وطلبتُ منه أن يصنع لى غطاءً فضيًّا كذلك أرفه
بى عن نفسى إذا لعبت الحجرُ برأسى ؛ ولكنه أصرَّ على أن يفتحَ ثقبًا فى
مُجمعتى ، وأن أنتظر حتى الحرب القادمة لى تهبَّأ لى فرصةً لأصاب
بشظيةٍ قنبلةَ طائرةٍ . أما عن الطريقة الأولى فلم أجازفُ بنفسى ، أما عن
الثانية فإننى ما زلتُ أنتظر نشوبَ حربٍ ثانيةٍ ، وإن كنتُ قد بدأتُ
أحس بأنه لا ضرورةَ لذلك نظرًا إلى أن الحاجةَ إلى خمرٍ قويةٍ ليست
ملحةً عندنا كما هى الحال فى تلك البلادِ الشمالية الباردة .

...

وقد يسألنى سائلٌ: أى كلبٍ أشدُّ براعةً ؛ أهى فينس أم الكلبُ
ييكاس ؟ والجواب على ذلك أن كليهما بارعٌ فى فن من فنون الصيدِ ؛ أما
فينسَ فذاتُ أنفٍ قوى الشمِّ ، أما ييكاسُ فكلبُ صيدٍ مثابرٍ لا يقرُّ
له قرارٌ ، ولا قصٌّ عليكم حكايةٌ من حكاياته :

حدث بعد أن تزوجتُ بقليل أن أبدت زوجتى رغبةً فى أن تصحبنى

في رحلة للقنص فركبتُ جوادى وسرتُ في المقدمة لأبحثَ عن صيدٍ ما ،
ولم يعبُ وقتٌ طويلٌ حتى وقف كلبي ييكانُ قُبالةِ سربٍ من البطِّ البريِّ
يبلغُ ما لا يقلُّ عن مائةِ بطةٍ . فانتظرتُ حتى تحضَرَ زوجتى ، وكان في
صحبتها مساعدى وخادمٌ من الخدم ، ولما طالَ في الانتظارِ تملكَّنِي القلقُ
فعدتُ أدراجى حتى إذا وصلتُ إلى منتصفِ الطريقِ سمعتُ أصواتاً
وتنهتةً تبدو وكأنها صادرةٌ من مكانٍ قريبٍ ولو أننى لم أرَ حوالى أحدًا
من قريبٍ أو بعيدٍ .

وكان من الطبعِ أن أنزلَ عن فرسى ، فوضعتُ اذنى على الأرضِ
أسمعُ مصدرَ الصوتِ فإذا به ينبعثُ من بطن الأرضِ ، ثم أخذتُ أميزُّ
صوتَ زوجتى وكلامَ مساعدى وخادى . فتحيرتُ في أمرى ، إذ كيف
أنتهى بهم الطريقُ إلى هذا المكانِ ، وأكبر ظنى أنهم دخلوا منجمَ فحمٍ
مهجورٍ فانهارَ عليهم على بعدِ تسعينَ ذراعاً من سطحِ الأرضِ على الأقلِّ .
فأمسرتُ إلى القريةِ القريبةِ وأحضرتُ جماعةً من المالِ لِإِيقادِ هؤلاءِ
المنكوبين ، وبعدَ جهدٍ جهيدٍ تمكَّنّا من إخراجِ الخدمِ ثم فرسيه ، ثم
مساعدى وحصانه ثم زوجتى وفرسها التركية ، ولكنَّ الغريبَ في الأمرِ
أنَّ أحدًا منهم لم يُصبْ بأذى مع أنهم وقعوا من ارتفاعِ ستائةِ قدمٍ .
نم يا أصدقائى إنه الحظُّ .

ومن البديهي أننا لم نستمر في ذلك اليوم بعد هذا الحادث فمَدْنَا إلى البيت، وهناك وجدتُ رسولاً ينتظرني ويدعوني إلى مهمة سرية فسرتُ على الأثر، ولم أقض ساعة في الراحة، وسَلَخْتُ في هذه المهمة أربعة عشر يوماً ولا أريدُ أن أحدثكم في هذه المرة عما جرى لي في قلعة «ويزل» إذ أن حديثي اليوم عن كلي بيكاس. فأنا رجعتُ من هذه الرحلة حتى سألتُ عنه. ولكنَّ أحداً لم يردَّ على سؤالي إذ كانوا يظنون أنه صَحَبَنِي في رحلتي الأخيرة .

عند ذلك طرأتُ على فكرة - وقلتُ لنفسي : أيجوز أن يكون النكَبُ حتى هذه الساعة في حِرَاسَةِ سِرِّ البَطِّ ؟ فدفعني الأملُ والخوفُ إلى البحثِ عنه في ذلك المكانِ نفسه الذي كنَّا فيه منذ أسبوعين . وهناك - وبالفَجْءِ - رأيتُ بيكاسَ الأمينَ في مكانه لم يبرحه ! فإنا ناديتُه حتى وثَبَ على قدميه واندفع إلى فُهاجتِ الأوز، وكان من حسن حظي أن اصطَلْتُ خمساً وعشرين منها بطلقة واحدة . ولا أظنُّ أحداً منكم يا أصدقائي قد مرت به مثل هذه التجربة السعيدة . أما بيكاسُ الشجاعُ فكان قد أَهْلَكَ الجوعُ وهذه التعبُ والإعياء حتى أنه لم يكن ليُمشي إلا زحفاً ولا يقدر على شيء إلا الحس

يدى . فما كان منى إلا أن حملته على فرسى وعلت به إلى البيت حيث
كانت رعاية زوجتي إياه سبباً لاتعاشه .

وفي خلال ذلك كنت أفكر ملياً في حل مشكلة لا أجدها حلاً ،
إذ قضيت يومين أحاول أن أقتنع أردنياً كبيراً ولكن الخط لم يواتني ،
فكان يكاسئ يسوقه إلى مكاني ولكنني مع ذلك ما كنت لأستطيع أن
أسدد عليه النار . وما أنا من الذين يؤمنون بالسحر والساحرات إذ لا
أصدق إلا ما تعترف به حوامي الخمس . ثم تيسر لي في النهاية أن أقتنع



هذا الأرنب المجيبَ بطلقة صائبة فلما اقتربتُ منه رأيتُ -ويا للعجب-
 أن لهذا الأرنبِ أربع أرجلٍ أخرى في ظهره . عند ذلك تكشَّفَ لي
 سرُّهُ وعرفتُ سببَ سرعة جريهِ: فكان إذا أجهدُ العدوُّ انقلبَ (كما يفعل
 السباحُ في الماء) على ظهرهِ وأخذَ يعدو بأرجله الأربع الأخرى التي
 تكونُ أثناء ذلك في فترة من الراحة .

ولا أظنُّ أحداً منكم قد صادفَ في رحلاتهِ مثل هذا الأرنبِ
 المجيبِ ، وأصدقكم القولَ بأنِّي لم أرَ مثيلاً له مرَّةً أخرى .

الليلة الثالثة

تذكرون يا رفاقي الأعزاء ما حدثتكم به في ليلتنا الماضية عن كلبتي وأما الليلة فسأحدثكم عن طرائف كلب آخر .

لم تكن كلبتي « زفيوتا » أقل براعة من كلبتي ييكاس الذي منيعتم شيئاً عنه . فقد حدث في يوم من الأيام أن خرجت للصيد ولم أرد أن أضطجها لأنها كانت حاملاً إذ ذاك ، وكان من التيسر عليها أن تغدو بسرعة كافية . ولم يمض وقت طويل حتى بدا لنا أرنب برى وكان نادراً في منطقتنا فما رأته كلبتي حتى انطلقت وراءه ، فقلت لنفسي دعها وتفسها تجرى كما تشاء ، وأخذت أسير هونا يجوادي فسرطان ما اختفى الأرنب أمام عيني ، وبعد قليل سمعت نباحاً ضعيفاً ولكنني لم أعرف ماهو ولم أميز صاحبه .

ثم إنني اتجهت صوب مصدر هذا الصوت ، فلما اقتربت منه رأيت منظرًا عجيبا . رأيت تلك الأرنبنة وقد ولت خمس أرانب صغيرات وفي الوقت نفسه كانت كلبتي قد وضعت خمسة أجراء كذلك ، إذ كانت صاحبة ذلك النباح الخافت ، ثم تقدمت زفيوتا وحملت الأرنبنة الكبيرة بفمها

كما اصطاد كل جرو من أجرائها أرنبا من الأرانب الصغيرة. وهكذا
بدأت الصيد بكلب واحد وأرنبي واحدة، ثم عُدت إلى البيت مُصْطَحِبًا
ستة كلاب وستة أرناب. لقد أثار هذا المنظر ضحك زوجتي وأشاع
المرح في البيت.



كانت زفيرتا كَلْبَةً شَدِيدَةً العَدْوِ حَمَّةُ النَّشَاطِ لَا تَهْدَأُ وَلَا تَسْتَقِرُّ
لهذا أخذت أقدامها في الانبراء من كثرة العَدْوِ والرواح فأصبحت قصيرة
حتى اقتربَ بطنها من الأرض ، فلم يَمُدَّ لها مجال في رحلات الصيد .
لهذا استخدمتها كـبعض كلاب الزينة . وعند ما تقدمت بها السن عَجِيتُ
لهذا كنتُ أَعْقِدُ حَوْلَ ذَنِبِهَا فَنَوْسًا صَغِيرًا تَسِيرُ بِهِ فِي الْبَيْتِ . هَذِهِ
بعضُ طرائف كَلْبَتِي العزيرة زفيرتا يا أصدقائي الأعزاء .

...

حَدَّثَ بَعْدَ أَنْ اتَّعَى مَوْسِمُ الصَّيْدِ الَّذِي رَوَيْتُ لَكُمْ بَعْضَ أَخْبَارِهِ
أَنْ عَقَدْتُ الْعَزَمَ عَلَى السَّفَرِ إِلَى رُوسِيَا ، وَعِنْدَ مَا وَصَلْتُ إِلَى وارسُو فِي
بولندا رَأَيْتُ أَنَّ أَقْصَى فِيهَا أَيَّامًا ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ سَوْءِ الْحُظِّ لِأَنَّ الشِّتَاءَ كَانَ
قَدْ أَقْبَلَ وَكَانَ شِتَاءٌ غَيْرُ مَادَى سَقَطَتْ فِيهِ التَّلَوِجُ وَتَرَاكْتُ حَتَّى غَطَّتْ
الْوُدْيَانُ ، وَلَيْكُنْ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْنِي مِنْ مُتَابَعَةِ السَّفَرِ ، وَسُرْعَانِ مَا تَعَوَّذْتُ
احْتِمَالَ ذَلِكَ الْبَرْدِ الْقَارِسِ فَلَمْ أَعُدْ أَحْسَنُ بِشِدَّتِهِ .

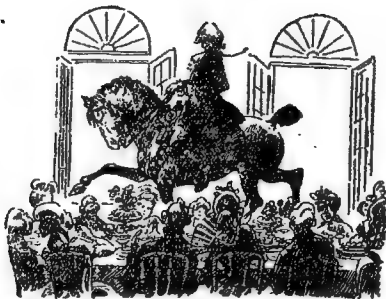
كَانَتِ التَّلَوِجُ قَدْ أَخَذَتْ تَغْطِي كُلَّ شَيْءٍ حَوْلِي حَتَّى كُنْتُ أَقْصَى
الْيَوْمَ بِأَسْرِهِ دُونَ أَنْ أُمَرَّ بِقَرْيَةٍ أَوْ خَانٍ مِنْ الْخَانَاتِ أَوْ بَيْتٍ مِنَ الْبُيُوتِ ،
وَكُنْتُ فِي سَيْرِي مُتَّجِهًا دَائِمًا صَوِّبَ الشَّمَالِ مُهْتَدِيًا بِشُرُوقِ الشَّمْسِ
وَبِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَلَكِنَّ الْعَجَبَ تَمَلَّكَنِي إِذْ كُنْتُ أَعْلَمُ بَعْدَ دِرَاسَتِي

للخرائط الجغرافية الخاصة بهذه المنطقة أنها مُنطَاة بناباتٍ كثيفةٍ بينما لا أرى حوالى إصحارى ثلجيةً جرداء لا ترتفع فيها شجرةٌ ولا يقوم فيها جدارٌ.

وعند ما أقبل الليل كان الثَّعبُ قد تملكنى فزلتُ عن جوادى وأخرجتُ بعضَ الخبز وقسمتهُ بيني وبينَ جوادى إذ لم يكن هنالك ما يأكله في هذه البرية الجرداء الخالية من العُشب. وعند ما تلقتُ حوالى وجدتُ قطعةً من الخشبِ كطرفِ جذعِ شجرةٍ مُدَبَّبٍ، فربَطْتُ لَجامَ الجوادِ به ثم تمددتُ على الثلج على بضعِ خطواتٍ منه بعد أن جعلتُ من السرجِ وسادةً لرأسى، ومن حُسنِ الحفظِ أن خفتُ العواصف الباردة وأخذتُ تهبُ ريحَ جنوبيَّةٍ لطيفةٍ؛ فنمتُ نوماً هادئاً إذ سرَّمان ما شملتى النَّعاسُ فلم أنتبهُ إلا وكان النهارُ قد تَفَتَّحَ.

وعند ما تلقتُ حوالى ظننتُ أنى أحلمُ إذ وجدتُ نَفْسِي راقداً في فناء كنيسةٍ قديمةٍ من القرى، فلما بحثتُ عن جوادى لم أجدهُ أثراً. عند ذلك طرقتُ سمعى أصواتٌ مختلطة. فما أن أدتُ رأسى نحو مصدر الصوتِ حتى تبينتُ صهيلَ جوادى وقد انبعثَ من الفضاء فوق رأسى كما أقيتُ جماعةً من الفلاحين متجمعين حوالى وقد ارتسمت على وجوههم

الدهشة وهم يُشيرون بأصابعهم إلى حيث كانوا ينظرون في الفضاء . فإذا
 رأيت؟ هُنالك على قمة برج الكنيسة رأيت جوادى مربوطاً بمن ذاللقى
 يأتري قد حمله إلى ذلك المكان؟ ولكن بعد قليل تجلت لي الحقيقة سافرة .
 كانت هذه القرية قد غمرتها الثلوج في الليلة الماضية ، وكان أهلها
 قد تحصنوا في البيوت، فجلسوا أنفسهم بها وما كنت قد رأيت في ضوء
 النجوم الباهت وتحت تأثير لمان الثلج فصينته جذع شجرة كان ذلك في
 الحقيقة قمة برج الكنيسة فربطت حصاني به، ثم إن الثلج أخذ في التوبان
 أثناء نومي وهكذا طفت أميط رؤيذا حتى استقرت في الرقاد على الأرض .
 كان أول ما فعلته أن عملت على تخليص حصاني من مكانه هذا
 فأخرجت مسدسي وأطلقته فقطعت بذلك اللجام المعقود به ؛ فما كان من
 جوادى الشجاع إلا أن وثب من ذلك الارتفاع إلى الأرض وهو يهز
 رأسه وذيله فرحاً بي . وكان صاحب الخان رجلاً طيب القلب لأنه أسرع
 وأ- ضر طعاماً لكل منا ؛ وبينما كان جوادى يلثم مقداراً مزدوجاً من
 القُرطم طفق صاحب الخان يقص علي أخبار الثلوج التي تسقط في كل
 شتاء بمثل هذه الشدة في بولندا . وبعد أن كافأته على ضيافته بيمض النقود
 الذهبية (وإن كان قد تمنع كثيراً) تابعت رحلتى في طريق كانت حافلة
 بالأشجار بعد أن ذابت عنها الثلوج .



بعد بضعة أيام وصلت مقاطعة لتوانيا ونزلتُ صيفاً على الكونت
«بِرْزُوبِفِسكى» في ضيافته وهو من النبلاء المروفين، وقصدتُ بذلك أن
أستريح بعض الوقت وأستجم قبل أن أعود رحلتى الطويلة إلى روسيا.
حدث مرة أن كنا جلوساً حول مائدة الشاي فإذا بأصوات ترتفع
من مربوط الخيل وإذا بصائح يقولون بأن حصاناً حديث العهد قد انقلبت
زمامه فما أبهتُ في بادئ الأمر مما جرى بل بقيتُ في صحبة السيدات
حول المائدة، ثم إذا بالنداء يستحيل صراخاً وطلباً للنجدة، فتلقتُ فوجدتُ
هذا الحصان قد ثارت ثائرته وأخذ يرفس ويمض من حوله حتى أن
السائق الماهر عجز عن الاقتراب منه، فعم الجميع الأعرى، عند ذلك صاح

الكونت «برزوبوفيسكى» بى قاتلاً: «هلم يامنشها وزن فليس من أحد
سواك يروض هذا الفرس الجامح» .

فما كان منى إلا أن وثبت وثبة واحدة فاعتليت ظهر هذا الجواد
الهائج ، وما كانت إلا برهة حتى تملكك زمامه فماد إلى هدوئه .
وأبدت السيدات رغبة فى أن ترى هذا الجواد المستوحش؛ فرقت به
خلال النافذة المفتوحة إلى غرفة الشاي وأخذت أطوف به عدة مرات حول
المائدة بخطوات متزنة متناسقة، ثم وثبت فجأة على المائدة نفسها وأخذت
أنحظر ببراعة فائقة بين الكؤوس الزجاجية والأباريق والأطباق
المرصوفة دون أن أتمتع بها حتى علت الدهشة وجوه السيدات وتملك
الكونت العجب لبراعتي هذه، فما كان منه إلا أن قدم إلى هذا الجواد
الأصيل هدية وتذكاراً .

ولما علم البارون أنى جئت إلى روسيا لكى أشترك فى الحملة الحربية
معد الترك وهى التى يقودها المرشال مونيچ رغب فى أن يكون
هذا الجواد بالنات فى خدمة جندي شجاع مثلى حتى يبعد ذكرى
« بوكفالس » جواد الإسكندر الأكبر المشهور .

الليلة الرابعة

أعود هذه الليلة لأقص عليكم ما جرى لى بعد أن أهداني البارون البولندي ذلك الجواد الجامع . فقد خرجتُ في اليوم التالي للرياضة في بعض الحقول، وبينما كنت مائداً أدرأجى شاهدتُ حيواناً ضخماً يبدأ أنى لم أميز حقيقة لأن الظلام بدأ يُرغى سدوله فيقيتُ في شكٍ من أمره ؛ فنزلتُ عن صهوة جوادى وأسرعتُ الخطى لأتحقق عما إذا كان ذلك الحيوان كلباً أو وحشاً من الوحوش . فاهى إلا برهة حتى ألفتته أماى وهو يقتربُ منى وقد فرقه ، عند ذلك تبينتُ أن ما أرى ليس كلباً ولكنه ذئبٌ شرمٌ.

ماذا أنا فاعل؟ فليس معى سلاحٌ أدفعُ به عن نفسى بعد أن تركتُ مسدسى على ظهر الجواد . أخذَ هذا الوحشُ يقتربُ منى خطوةً خطوة . لقد كان الحربُ مستحيلاً فضلاً عن أنه ليس من مادة أهلئ أن يتخلصوا من الأخطار بالأبوق والفرار . فما كان منى إلا أن أدخلتُ جمعُ كفى في فيه المفتوح وأخذتُ أدفعها في حلقه حتى اختفت ذراعى بأمرها ثم ماذا بعد ذلك ؟ ها نذا أراى وجهاً لوجه أمام هذا الذئب ، وماذا يحدث لو أنى



أخرجتُ ذراعى فى هذه اللحظة ! ولكن بدلا عن ذلك دفعتُ بقبضتى
 فى جوفه و قبضتُ على أحشائه يدي وجذبتُها إلى الخارج كما يقليبُ
 أحدُنا قفازَه ! وهكذا قلبتُ ذلك الدئبَ فأصبحَ خارجُه داخلَه و داخلُه
 خارجَه ! وتركته هكذا ملقى على الأرضِ حتى وجسده البستانى فى
 اليوم الثانى !

لم أخبر أحداً بما جرى ، وإن كانَّ البستاني قد أشاع الحكاية
التي عدّها الجميعُ غاطرةً عظيمةً ؛ وإنّي أريد أن أذكر بهذه المناسبة أن
هذه الطريقة لم أستخدمها في كلِّ مناسبةٍ ، كما جرى لي مرة في
مدينة بطرسبرج .

...

حدث مرة أن كنتُ أسيرُ في بعضِ شوارع بطرسبرج الضيقة
فإذا بكلبٍ هائجٍ مصابٍ بالصرع يتبعني ولم يكن معي من سلاحٍ أدافعُ
به عن نفسي ، فلم يكن بد من أن أسرعَ الخطى ولسكى أيسر على نفسي
سرعةَ العدوِ نزعاً معطفي وألقيته على الكلب ليتلّهي به فبذلك تنأى
لي الفرصة للهروب وهذا ما حدث ؛ ثم التجأت إلى بابٍ مفتوحٍ بينما أخذ
الكلب الهائجُ ينقثُ غضبه في المطفئ ؛ عند ذلك تجمع الناسُ وأخذوا
يضربونَ الكلبَ حتى قتلوه ثم استخلصوا معطفي من بين أنيابه وقد
أصيبَ بتمزيقٍ طفيفٍ ، ولما عدتُ إلى البيتِ أرسلتُ بالمطفئِ إلى
الحياط فأصلح ما أصيبَ به من تمزيقٍ ، ثم أعاده خادمي إلى مكانه في
حيوانِ الملايس .

في صباح اليوم التالي استيقظتُ على ضياحِ الخادم الذي أخذ

يُؤَلِّوْا قَائِلًا : « سيدى البارون ! سيدى البارون ! لقد أصيبَ معطفك
بمرض الكَلْب » فقرعتُ من سرى ووضعتُ عباءةً على كتفى وتبعْتُ
الخادمَ إلى حجرةِ الملابسِ وهناك ويا للعجب ! وجدتُ معطفى وقد
أصيبَ بالكَلْب وحوله ملابسى التى هاجمها وقطعها إربًا إربًا . ثم
رأيتُه أمامَ عيني يَهْجُم على حُلَّةٍ جديدةٍ يحاولُ اقتسامها وأخذ فى تمزيقها
بوحشيةٍ كبيرة . فما كان منى إلا أن ختمتُ هذه المأساةَ بطلقةٍ من مسدسى
وأمرتُ بحرقِ هذه الملابسِ خوفًا من أن تصابَ كذلك بمدوى
الكَلْب .

أتى الملحُ على وجوهكم أيها الأصدقاء مِسْحَةً من الشكِّ كأنكم
فى ريبٍ مما رويتهُ عليكم ، ولكنتى أُقِيمُ لكم بشرى كفاريس بأننى لم
أَعُدْ ذَكَرَ الحقيقةَ .

...

وبمناسبةِ حكايةِ الذئبِ التى قصصتها عليكم أريدُ أن أرويَ لكم
قصةً أخرى عن الذئابِ الثلجيةِ .

حدثَ مرةً أثناءَ وجودى فى روسيا أن كنتُ عائداً إلى
بطرسبرج على زحافةٍ ثلجيةٍ يحرها جوادٌ على غير عادةِ تلك البلادِ ،

حيث تقوم الكلاب بهذه المهمة ، وما إن اقتربت من المدينة
حتى برز لي ذئب كبير فمرس قد أطار الجوع صوابه فراح يتكسّر
فريسة جديدة . فلما رأيت ذلك وقد كنت لا أحمل سلاحاً لم أجذبداً
من أن أرتجى على بطني في قاع الزحافة ، ومن العجيب أن ما تحيلته
حدث فعلاً . ذلك أن الذئب - وقد تملّكنه - الشراسة وثب على مؤخر
الفرس وأخذ يلتهمها فلما أمضىها الذعر والألم راحت تسابق الريح
بأكثر من ذي قبل ، فلما رفعت رأسي رأيت هذا المنظر العجيب :
رأيت الفرس الدامية وقد اتهم الذئب نصفها الخائن بينها هذا الوحش
يطاردها ونهش بقيتها ، فإني كان مني إلا أن وقعت عليه بالسوط من
الخلف وهو يحاول بكل قوته أن يتقدم إلى الأمام ، فكان من ذلك أن



سقطت الفرسُ الميتة إلى الأرضِ وإذا بالذئبِ يحل مكانها بعد أن
هَوَتْ عُدَّةُ الفرسِ على عاتقه !

لم أحاولُ بالطبع أن أدعِ الفرصةَ للذئبِ لينتَبِهَ لما حدثَ ، بل
طِفِقتُ أهوى عليه بالسَّوطِ دونَ أن أتوقَّفَ وراحَ هو يجرُّ الزحَّافَةَ
ويسابقُ الريحَ سياتِكا حتى دخلنا بطرِمْبُرجَ فكانَ منظرًا فريدًا ؛ فلما
وقفتُ أمامَ قصرِ المارشالِ مونييغَ وأطلَّ علينا من نافذةِ القصرِ ورأى
عربيَّ يقودُها ذئبٌ متوحشٌ لم يتألَّك نفسه من الضحكِ .

وإني لأذكُرُ واقعةَ طريفةً حدثت لي مثلَ هذهِ الحكايةِ ؛ ولكن
يكفيكم يا رفاقي الأعزاء ، ما حدثتكم به هذهِ الليلةَ .

الليلة الخامسة

مِنْ بَيْنِ مَغَامِرِ الرُّوسِيَّةِ سَاقِصٌ عَلَيْكُمْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ حِكَايَةُ
وَاحِدَةٍ ، جَرَتْ وَقْتُ أَنْ عُمِنْتُ قَائِدًا لِفِرْقَةٍ مِنْ فِرْقِ الْمَوْسَارِ إِبْرَانَ
الْحَرْبِ التُّرْكِيَّةِ وَاسْتَوَلَيْتُ بِذَلِكَ عَلَى حِصْنٍ « إِكْزَاكُوف » وَكَانَتْ
الْحَامِيَةُ التُّرْكِيَّةُ كَبِيرَةً الْعَدَدِ إِذَا قِيسَتْ بِعَدَدِ أَفْرَادِ فِرْقَتِي .

فَكُنْتُ فِي حِيلَةٍ أَسْتَتِيرُ بِهَا الْفَرْعَ فِي قُومِ أَعْدَائِي ، وَذَلِكَ أَنِّي
أَمَرْتُ رِجَالَ الْجُنَاحَيْنِ أَنْ يُسْفُوا الرَّمَالَ حَتَّى كَادَتْ تَحْجُبُهُمْ عَنِ الْأَعْيُنِ ،
يَنْمَا تَرَكْتُ قَلْبَ الْجَيْشِ الَّذِي عَزَّزْتُهُ بِأَكْبَرِ عَدِيدٍ مِنَ الرِّجَالِ ظَاهِرًا لِلْعِيُونِ
فَلَمَّا اقْتَرَبْنَا مِنَ الْأَعْدَاءِ ، وَأَبْصَرُوا الزَّوَابِعَ الرَّمْلِيَّةَ الَّتِي تَغْطِي الْجُنَاحَيْنِ
هَالَهُمُ الْأَمْرُ وَظَنُّوا أَنَّ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ مَا وَرَاءَهَا ، وَأَنَا نَزَحْتُ بِأَضْعَافٍ
عَدِيدَةٍ ، فَهَذَا ذَلِكَ مِنْ ثَقَتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَرُحْنَانِصِيحُ « هُورَا » حَتَّى غَطَّى
زَعِيمُنَا عَلَى صِيَاحِهِمُ الْمَعْرُوفِ « اللَّهُ يَاللَّهُ » .

سَرَعَانِ مَا تَرَاوَجَعَ التُّرُكُ ، ثُمَّ اسْتَحَالَ تَرَاجُعُهُمْ إِلَى فِرَارٍ ، فَلَمَّا وَصَلْنَا
إِلَى الْحِصْنِ وَجَدْنَاهُمْ يَتْرَكُونَهُ مِنْ بَوَائِبِهِ الْجَانِبِيَّةِ ؛ وَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ
أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ الْحِصْنَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ نَشْوَةَ الظَّفَرِ كَانَتْ قَدْ تَمَلَّكَتْنِي

فضلاً عن أن جوادى كان سباتاً يسير دائماً في المقدمة، وما ان تخطيت
بوابة الحصن الكبرى وقد هرب منه آخر جندي من الأعداء، حتى
انقلت من ورائى بطريقة آتية، فسررت إلى رحبة الشوق حيث رأيت
أن أجمع هناك شتات فرقتى .

وكانت دهشتى عظيمة عندما وجدت نفسى وحيداً فى الرحبة إذ
كانت خالية من كل إنسان، وبينما كنت أفكر فى ذلك وقد طال
بى الوقوف، رأيت أن أتهز الفرصة لأسقى حصانى الذى كان قد أنهكه
التعب والعطش. فسررت إلى حوض ماء قريب وتركت الحيوان المسكين
ليأخذ كفايته من الماء . وهنا جرت حادثة غريبة .

تركت حصانى يروى غلته من الماء بينما أخذت أفكر فى أمر
جنودى، ثم مضت قرة من الزمن ثم أخرى ثم أخرى والحصان لم ينقطع
عن الشرب فجببت لذلك جداً العجب، فلما رفت عيني عرصاً وجدت
- وبألغرابة - أنني كنت لا أمتطى إلا نصف حصان فقط وأن النصف
الخلفى كان مفقوداً لذلك كان الماء الذى يشربه الحصان من فيه يخرج من
نصفه الخلفى المقطوع دون أن يروى له غلة !

وبينما كنت حائرأ فى أمرى إذا بجادى يبرز من شارع جانبي ،



وبعد أن قدّم إلى فروض الاحترام والتهاني لهذا النصر المبين فسّر لي سرّ
اختفاء نصف جوادى .

وما حدث هو أنّي عندما كنت أطاردُ الأعداءَ عندَ بوابةِ الحصنِ
سقطت هذه فوق فشطرتُ جوادى نصفين . ولما كُنتُ مشغولاً بأمرِ
هؤلاء التزكّ القارينِ أمامي لم أتنبّه لما حدث بل طفقتُ أتبعهم هكذا
حتى طردتهم من البوابة الخلفية .

ثمّ إنّي عدتُ بعد ذلك إلى البوابة حيث وجدتُ النصف الخلفي
لحصانى مكانه وهو حي يتحرّك، فما كان مني إلّا أن بعثتُ في طلبِ صانع

السروج الذي خاطَ نصفي الحصانِ وضم الواحد منهما إلى الآخر بِرَاعَةٍ عَصِيَّةٍ ، غير أنه لم يحد سوى بضع فروعٍ من شجر الغار للقيام بمهمته هذه ؛ فكان من ذلك أن نبتت هذه الفروعُ فيما بعد وامتدت جذورها في جسم الحصانِ ، ثم اخضرت وتكاثفت أوراقها حتى أتت كنتُ أُستَظِلُّ بها أثناء هذه الحملةِ وإبان حملتي الثانية في تركيا .

ففي هذه الحملةِ الأخيرة تمكّن السير عسكرياً إلى باشا من تضيق الخناقِ على الجيشِ الروسيِّ حتى كاد يفتكُ به ، إذ دفعهُ أمامهُ إلى برزخٍ يركوب عند رأسِ شبه جزيرةِ القرمِ لكي يقطعَ عليه المددَ والمواصلات . لقد كان موقفُ الجيشِ الروسيِّ ميوثوساً منه لولا ما قُمتُ به من محاولاتٍ جريئةٍ لتعرّفِ مواطنِ الضعفِ في المعسكرِ التركيِّ ، لهذا تمكّنا من القيامِ بمناوشةٍ لتحويلِ أفكارِ القائدِ التركيِّ وتبئنا ذلك بهجومٍ كان فيه النصرُ لنا .

وإنني لم أذكر هذه الحكايةَ إلا لِمَا تبيها من نتائجٍ تعلقُ بي ، وذلكَ أتتني بعد هذا المجهودِ الشاقِ المتواصلِ أثناء القتالِ أحسستُ بمجزٍ في ذراعيِّ بما اضطرّني إلى وضعها في جيرةٍ مُدَّةٍ من الزمنِ ، فكانت هذه علامةً تمكّن بها التركُ من معرفةِ مكاني فأخذوني أسيرَ حربٍ .

الليلة السادسة

رفاق وأصدقائي الأعزاء .

وعذتكم أن أُمَحِّدَ إليكم هذه الليلة بما جرى لي أثناء اعتقال
في استنبول ؛ وما أنذا أبرّ بوعدي لكم .

لَمَّا كُنْتُ مِنْ كِبَارِ الضَّبَاطِ لم يكن مصيري مصيرَ غيري من الجنود ،
بل عُيِّنْتُ للخدمة في حدائق السلطان ، وعلى التحقيق عُيِّنْتُ حارساً للنحل
السلطاني ؛ وكان هذا العمل ولا شك مُثِيراً للسَّامِ والمَلَلِ لضابطٍ مغامرٍ
من المؤسار مثلي ، ولكن على الإنسان أن يتعلَّم .

لم يَمُضِ وقتٌ طَوِيلٌ حتى عرفتُ أسرارَ النحلِ الذي وُضِعْتُ في
حِرَاسَتِهِ نَحْلَةً نَحْلَةً ؛ فَكُنْتُ في كُلِّ صَبَاحٍ أَخْرُجُ بِهَا إِلَى الثَّرُوجِ
الْخَضِرَاءِ ، حَيْثُ أَقْضِي اليَوْمَ أَرْعَافَهَا وَأَحْظُهَا ، فَإِذَا أَمْسَى الْمَسَاءُ عُدْتُ بِهَا
إِلَى حِظَائِرِهَا ، لِهَذَا كَانَ عَسَلُهَا وَفِرَاشُهَا .

وفي ذاتِ مَسَاءٍ افْتَقَدْتُ نَحْلَتَيْنِ مِنْ هَذَا النَّحْلِ ، فِينَمَا كُنْتُ أَبْحَثُ
عَنْهُمَا هُنَا وَهَنَاقَ وَقَسَتْ عَيْنِي عَلَى دُبَيْنِ يَحَاوِلَانِ اخْتِلَاسَ الْعَسَلِ الْخَزُونِ ،
وَلَمَّا لَمْ أَجِدْ شَيْئًا فِي يَدَيِ أُطْرِدُهُمَا بِهِ فَتَقَهُمَا بِفَأْسٍ فَضِيَّةٍ صَغِيرَةٍ (وهي

الشَّارَةُ الرَّشِيَّةُ لِكُلِّ بُسْتَانٍ يَعْمَلُ فِي الْحَدَائِقِ السُّلْطَانِيَّةِ) وَمَعَ أَنِّي
لَمْ أَصِْبِ الدُّبَيْنَ إِلَّا أَتَهُمَا فَرِمًا وَهَرِيًا . وَلَمْ أَذْرِ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلَ هَذَانِ الدُّبَّانِ
إِلَى اسْتَبْوَاحِ أَمِينِ الْبَلْقَانِ ؟ أَمِينِ بَرْنَانِ ؟ أَمِينِ هَلِيكُونِ ؟ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ
فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِحِكَايَةِ عَجِيْبَةٍ .

وَذَلِكَ أَنِّي عِنْدَ مَا قَدَفْتُ الدُّبَيْنَ بِالْفَأْسِ الْفُضِيَّةِ بِشِدَّةٍ أَخَذَتْ
الْفَأْسُ مِنْ عَظْمِ الشَّرْعَةِ تَرْتَفِعُ فِي الْفُضَاءِ ، ثُمَّ تَرْتَفِعُ ، ثُمَّ تَرْتَفِعُ ، حَتَّى
نَطَحَتْ الْقَمَرَ وَتَسَمَّرَتْ بِهِ !

وَالْآنَ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى اسْتِرْجَاعِ الْفَأْسِ ؟ وَأَيُّ سَلَمٍ يَرْتَقِيهِ الْإِنْسَانُ
مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْقَمَرِ ؟

عِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرْتُ أَنِّي أَهْمَلْتُ فِي جَنِّي مُنْذُ بَضْعَةِ أَيَّامٍ حَبَّةَ فَوَلٍ
أَهْدَانِيهَا بُسْتَانِي الْقَصْرِ وَلَعَلَّهُ جَاءَ بِهَا مِنْ بَقْدَادَ أَوْ وَجَدَهَا فِي قَبْرِ مَنْ
قُبُورِ الْأَوَّلِيَاءِ . فَأَسْرَعْتُ وَبَذَرْتُهَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَا لَا أَكْأُ أَصْدَقُ مَا رَوَى
لِي عَنْهَا مَرَّةً قَالِمُ الْبُسْتَانِ الْمَجُورُ وَعَنْ سُرْعَةِ نُمُوِّهَا وَازْدِيَادِهَا . فَمَاذَا
حَدَثَ ؟

مَا إِنْ وَضَعْتُ هَذِهِ الْحَبَّةَ فِي الْأَرْضِ حَتَّى وَجَدْتُهَا تَنْزِعُ وَتَتَفَتَّحُ ثُمَّ
تَبْدُو سَائِقُهَا وَتَرْتَفِعُ ثُمَّ تَوْرِقُ وَإِذَا بِهَا أَمَامِي شَجِيرَةً كَامِلَةً ثُمَّ إِذَا بِهَا تَسْتَدَدُّ

ثم ترتفع في الفضاء، وما هي إلا بضعة ساعاتٍ حتى امتدَّت فروعُها
والتنصقت بالقمر، فما كان مني إلا أن ارتقيتُ عليها حتى وصلتُ بدوري
إلى سطح هذا الكوكب !

وهناك وجدتُ أمامي مُعضلةً عويصةً إذ كان من العسيرِ عليَّ أن
أبحثَ عن فأسٍ فضيةٍ صغيرةٍ مُلقاةٍ على وجه القمرِ الذي كان يلعبُ بدوره
كالفخيةِ المجاورةِ، ومع ذلك فقد تمكَّنتُ من العثور على ضالتي بعدَ بحثٍ
ساعاتٍ طويلةٍ . ولكنَّ مشكلةً أخرى أشدَّ تعقيداً اعترضتني . وذلك
أن فروعَ شجرةِ القوَلِ هذه ما أسرعَ أن جفَّت بفعلِ حرارةِ الشمسِ
الشديدةِ فتساقطتْ وتركنتي وحيداً منبوذاً على سطحِ القمرِ .

كان من حسن حظِّي أن وقعت الفأسُ على كومةٍ من الأليافِ
والأغصانِ الرقيقةِ التي توفَّرتُ على جذليها، فقتلتُ منها حبلاً طويلاً
متيناً ربطتُ طرفهُ بأحدِ قرني القمرِ، وتعلَّقتُ به ممسكاً بإتاه يدي
اليُسرى، بينما قبضتُ على الفأسِ بيدي اليمنى . وكنتُ كلما أتدلى مسافةً
أقطعُ طرفَ الحبلِ فوق رأسي وأصله من تحتي، وعلى هذا النحو من
القطع والوصلِ أخذتُ في الهبوطِ شيئاً فشيئاً ؛ حتى إذا قاربتُ
الوصولَ إلى الأرضِ أصبغتُ مع الأسفِ بكارثةٍ وأنا على بُعدِ ميلين من

سطح الأرض ، فينما كنتُ جالساً على بعضِ السُّحُبِ إذا بالجلجل ينقطعُ
فأهوى فجأةً وبسرعةٍ هائلةٍ إلى سطحِ الأرضِ حتى كدتُ أفقدُ وعي .
وعند ما بُنيتَ إلى رشدي وتلفتُ حولي وجدتُ أن السقطةَ كانتِ
شديدةً ، حتى أنني انترستُ إلى مسافةٍ بضعةِ مئاتٍ من الأقدامِ في جوفِ
الأرضِ . وإن هذهِ الحادثةَ كثيراً ما يجعلها رواةُ أخباري ومغامراتي
موضوعاً لأكاذيبهم ومفترياتهم ! وما حدثَ فعلاً هو أنني عَمَدْتُ إلى نحتِ
عشراتٍ من الدرجاتِ في الحجرِ لأخلصَ نفسي من هذهِ الهوةِ السحيقةِ .
وإن كان البعضُ يأخذُ على النباءِ لأنني استخدمتُ أعْظاري في نحتِ هذهِ
الدرجاتِ بينما كنتُ أحمِلُ فأساً في يدي ، ولسكتي لأجدُ ضرورةً
لمناقضتهم أو لمخالفةِ حقيقةِ الواقعِ !

...

وبمناسبةِ ما قصصته عليكم عن الديبةِ أروى لكم حكايةً أخرى
تذكرُكم بها . فأنتم تعرفون كيف نصيدُ النبابَ عندما باستخدامِ شريطٍ
مدھونٍ بالعسلِ ، فهذهِ الطريقةُ أوحتُ إليّ باستخدامها في صيدِ الديبةِ .
وتفصيلُ ذلك أني دهنتُ المارضةَ الخشبيةَ لعمري نعلٍ نستخدمُها في الحدايقِ
بشيءٍ من العسلِ ثم اختفيتُ وراءَ بعضِ الأخشابِ ، وما أن أرخى



الليل أُستارهُ حتى ظهرَ دُبٌّ وراحَ يطوفُ حولَ العريّةِ عدّةَ مراتٍ حتى
اطمأنَّ بأن لا خوفَ ولا خطرَ منها، ثم تنبّه إلى وجودِ المسلِّ الذي - كما نعرفُ -
يستهوِي الدَّيْبَةَ فأقربَ من طرفِ العارِضَةِ الخشبيّةِ وأخذَ يلحسُ المسلِّ -
ثم يدفعُ قَمّةَ المفتوحِ شيئاً فشيئاً حتى - وقد استهوته حلاوةُ المسلِّ -
نفذتِ العارِضَةُ من حلقهِ وبطنهِ وبرزتْ من مؤخرِهِ! فلما وثقتُ من
قيدِهِ هذا وضعتُ وتدّاً في طرفِ العارِضَةِ حتى أَمْنَعُهُ من الإفلاتِ. وفي صباحِ
اليومِ التّالي بينما كان جلالَةُ السُّلطانِ يتنزّه في الحديقةِ، لمحَ هذا المنظرَ،
فما كانَ منه إلا أن تهالكَ ضحكاً!

وكانت هذه الحادثةُ فرصةً ليتعرّفَ السُّلطانُ عَلَيَّ، وإن كانت الفرصةُ
لم تطل كثيراً لأنّه حدثَ بعد ذلك أن عُقدَ الصِّلحُ بينَ النّسّا وتركيا وتلا

ذلك عقد الهدنة بين روسيا والباب العالي ، وكان من نتائجها تبادل
الأسرى بين الفريقين وهكذا عدتُ إلى بلادى .

ولم يخطر لي على بالٍ إذ ذاك أننى سأعودُ إلى استنبول مرةً
أخرى فى القريب العاجل ؛ وكانت عودتى إلى الوطن على ظهر عربة خيل
لا سير أعلى الأقدام كغيري من الأمري العاديين نظراً لكونى من طبقة
الضباط .

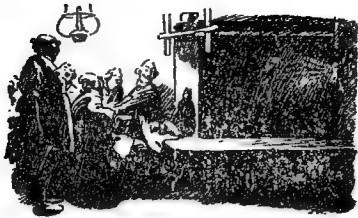
...

حدث أثناء هذه الرحلة أن كنا نشق طريقنا فى ممر جبلى ضيق
لا يكاد يتسع إلا لمرورنا وقد ذكرتُ سائق العربى بأن ينفخ فى نفيره
حتى يلفت أنظار القادمين من الجهة الأخرى تلافياً لما قد يحدث من
تصادم ، إذ أن الطريق لا يتسع لأكثر من عربة واحدة . وقد نفذ
الرجل رغبتي بالفعل فأخذ ينفخ فى نفيره بكل عزمه ، ولكن مع ما بذل
من مجهود لم ترتفع نعمة واحدة من البوق وكان هذا أمراً عجيباً لا يمكن
تفسيره . ومن سوء الحظ أن أقبلت فى تلك اللحظة بضعة عربات محملة
يجذوع الأشجار واعترضت سبيلنا ، ولم يكن من وسيلة للتخلص من
هذا المأزق ؛ عند ذلك طرأت على فكرة :

وثبتت من العربية وحللت الخيل منها، ثم انحنيت وأمسكت بها ما بين عجلاتها الأربع، ورفعتها إلى عاتق بما عليها من أحمال ثم قفزت فوق الحاجز الجانبي الذي يبلغ ارتفاعه تسعة أقدام حيث تركت العربية بأحمالها في أمان، ثم عدت وفعلت بالخيول مثل ما فعلت بالعربية، وهكذا أصبحت الطريق خالية فزرت العربات القادمة إلى حال سبيلها. حتى إذا كان هذا عدت بعربتنا إلى الطريق، ثم حملت الخيل ثانية إلى مكانها.

...

أعرفون ما حدث عند ما حططنا رحالنا في بعض الخانات للراحة؟ هنالك إلى يمين المدفأة الخضراء الكبيرة وضع سائق العربية قُبْعَةً كُملَعْلَقَ على الجانب الآخرِ قِيره، وما إن انقضت برهة حتى انبعت نفم متكرز من النفير، وتلت ذلك النجمات التي كان يرددها السائق والتي لم تنبعت من قِيره في الطريق، لأنها كانت قد تجملت من شدة البرد في ذلك اليوم! ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل إنه ما من نفمة أو أغنية حاول السائق أن يرتلها في ذلك اليوم كله وفشل في ذلك بسبب تجملها في فتحة قِيره إلا وانطلقت من النفير وهو معلق إلى جانب المدفأة، فسمعنا مزيجاً من الأغاني الروسية الشعبية كأغنية:



« مِنْكَ أَيَّتُهَا الْجِيلَةُ ، إِنِّي أودُّكَ ... »

« أَرَأَيْتَ هَذِهِ الْوَرَدَاتِ الثَّلَاثَ عَلَى خَدِّكَ »

ودُونَ أَنْ يَلْمَسَ السَّائِقُ النِّفِيرَ بِشَفْتَيْهِ ارْتَفَعَتْ فِي جَوْ الْمَكَانِ
الْأَنَاشِيدُ الْحَاسِيَةُ وَالْأَغَانِي الْمَاطِفِيَّةُ مِثْلُ : « أَوْجَسْتِ أَيُّهَا الْحَيِّبُ . »
« الْأَمِيرُ أَوْجِنَ الْفَارِسُ النَّبِيلُ » ثُمَّ « صِيَادُ كُورْقَاطَبَ » ثُمَّ اخْتَمَ
ذَلِكَ بِأَغْنِيَةِ الْمَسَاءِ « وَالْآنَ تَنَامُ الْأَحْرَاشُ وَالْأَشْجَارُ . »

مِنْ هَذَا تَرَوْنَ كَمْ كَانَ صَدِيقُنَا السَّائِقُ رَاغِبًا فِي تَسْلِينِنَا بِأَغَانِيهِ !
وَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ أَحَدًا مِنْكُمْ لَمْ تُتَحَّ لَهُ الْفُرْصَةُ لِيَمُرَّ بِمِثْلِ هَذِهِ التَّجْرِيَةِ
إِذَا أَنْ الْبَرْدَ فِي أَلْمَانِيَا لَيْسَ مِنَ الشَّدَةِ وَالْقَسْوَةِ بِمِثْلِ يُحْمَلُ الْأَنْفَامُ تَتَجَمَّدُ
فِي الْمَوَاءِ إِذَا أَنْ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى دَرَجَةٍ وَاطْنَةٍ جَدًّا مِنَ الْبُرُودَةِ .

وَقَدْ حَدَّثَ لِي كَثِيرًا أَنَّ التَّنْقِيطَ يَمُضُ الرِّحَالَةَ الَّذِينَ كَانُوا

يضايقونني بما يقصونه على من تجاربَ وحوادثَ لا يصدّقها العقلُ ولا يقبلها المنطقُ السليمُ. وإن خير عقابٍ لهؤلاء الكذابين أن تُديرَ أكتافنا عنهم ونمتنعَ عن مُجالستهم، أما إذا سجلوا مقترياتهم في كتبٍ فخيرُ عقابٍ أن يطوى القارئ مثل هذا الكتابِ بعد أن يحدّجه بنظرةٍ استخفافٍ وزرارةٍ!

وعلى النقيض من هذا إذا كانَ راويةُ الأخبارِ رجلاً نبيلًا صادقًا، بينما المستمعون له يقابلون حديثه بهزِّ الأكتافِ وبنظراتِ الشكِّ والريبة؛ لهذا أستمحُ أولئك الذين يشكّونَ في حقيقةِ منامراتي عذراً راجعاً منهم أن يتنبّوا أثناء اجتماعنا القادم، إذ سأروى عليكم بعضَ منامراتي البحريةِ التي تفوقُ في غرابتها جميعَ ما قصصتهُ عليكم من منامراتي البريةِ.

الثالثة السابعة

سأعودُ بكم هذه اللَّيْلَةَ يا أصدقائي الأعزاء ؛ إلى الماضي البعيد .
لم أكُذُ أتمدّي أيامَ طفولتي وأدخلُ مرحلةَ الفُتُوّةِ حتّى عَرَضَ
علَيَّ أحدُ أقرباءِ والدتي أنْ أصحبَه في رحلةٍ بحريّةٍ إلى جزيرة سيلان^(١) حيثُ
كانَ له عمٌّ يعملُ حاكماً لهذه الجزيرة . فأنارتْ هذه الدعوةُ في نفسي رغبةً
دفينةً للسّفرِ والسّياحة .

كانَ علينا قبلَ أنْ نركبَ البحرَ أنْ ننتظرَ بعضَ الوقتِ في مدينة
أَمِسْتِرْدَامَ حيثُ كانَ قريبي هذا في خدمةِ الحكومةِ الهولنديّةِ التي عمّلتْ
له بحملِ بعضِ الوثائقِ والتّعليماتِ إلى حاكمِ الجزيرةِ المذكورةِ . وقد يكونُ
منَ المستحبِّ أنْ أقصَّ عليكم شيئاً عن أخبارِ زيارتي لمدينةِ أَمِسْتِرْدَامَ وما
شاهدته فيها من طرائفَ ، أو أنْ أصِفَ لكم بعضَ مُشاهداتي في لندن
التي وصلناها بعدَ ذلك ونحنُ في الطّريقِ إلى الشرقِ ، بيدَ أنّي أتركُ ذلكَ
إلى مُناسِبةٍ أُخرى .

أما اليَوْمَ فإني أكتفي بالكلامِ عن شخصيّةٍ ممثّلةٍ عَرَفتُها في
العاصمةِ الإنجليزيّةِ ؛ هي شخصيّةٌ سائقِ العَرَبَةِ الملكيّةِ الّذي أعتقدُ
أنّه يمثّلُ - ولا شكَّ - الرّوحَ الإنجليزيّةَ حقّ تمثيلٍ ، والّذي قد

(١) كانت جزيرة سيلان مستعمرة هولندية إلى عام ١٨١٥

أستعجى نظري بصفة خاصة وآثر منظره عندى أبلغ تأثير . ولم يكن ذلك لما كان يضعه فوق رأسه من شعر مستعار كانت تتدلى جدائله على كتفيه، بل لأن صدره كان مُنطلي بلحية كثيفة تصل إلى ركبتيه وقد قُصت قصاً أنيقاً على هيئة الشعار الإنجليزى .

ولو أن ملك الإنجليز - وهو فى عربة التشريرة الكبرى - كان مطعم العيون لما كان يرتديه من فاخر الزى وهو فى طريقه إلى دار البرلمان، غير أن عيوني كانت مسمرة إلى سائق العربة الذى كان بين الفينة والفينة يفرقع بسوطه فى الهواء بطريقة فنية وينشر حوله جواً من العظمة . أما عن رحلتى البحرية فلا أريد أن أتحدث عنها كثيراً ، إذ أنه ما من مُسافر على سطح الماء إلا وصادفته رياح وعواصف ، حتى أن وصفاً لرحلته لا يكاد يخلو من ذكر الأنواء والزعازع ، لهذا فلن أتحدث إليكم بمصادفت من شدة أثناء هذه الرحلة ، وأكتفى بذكر بعض مُغامراتى فى الصيد أثناء وجودى فى جزيرة سيلان .

خرجتُ فى يومٍ من الأيام فى صُحبة الابن الأكبر لحاكم الجزيرة وأخذنا نتجول فى مكان لا يبعد كثيراً عن ساحل البحر ، وكان صاحبي هذا شاباً قوياً قد تموّد الحياة فى البلاد الحارة فلم يجهده السير تحت الشمس المحرقة ، بينما التجأتُ إلى بعض الأعراس للقبولة فى ظلها ،

فحرارة هذه البلاد لا تطيقها نحن معشر الأوربيين ، ويكنى أن أقول
 إن أضرار معطى المصنوعة من الرصاص ذابت بفعل الحرارة الشديدة
 وإن بُدْقِيّتي أصبحت شديدة الحرارة حتى كادت تتوهج من تأثير
 الشمس ، وكان البارود يتفجر دون أن أضغط على زناد البندقية ،
 وكان المرق يتصبب من جيني كجداول الماء فلا تنقضى دقيقة حتى أبلل
 منديل ثم أنشرته على قصبة البندقية المتقدة ، وكنت أسمع نسيش الماء
 إذا ما لمس المنديل المبلل المدن المتوهج .

ثم سرت مفرداً لأتفرج على عجائب الطبيعة حتى وصلت إلى نهر
 متدفق ، وما إن حدثت نفسى بالجلوس قليلاً على ضفته حتى استرعى سمعى
 صوت غير مألوف ، فالتفت فإذا بأسد هائل ضخم الجثة واقفاً خلفي ينظر
 إلى شراً ، ولم أفكر طويلاً ، بل جذبت بُدْقِيّتي وأطلقتها على الفور في
 وجه هذا الحيوان الكاسر وإن كنت أعرف أن ذلك لا يُجدي قليلاً إذ
 كانت محشوة برصاص لصيد الطيور . لقد كان ذلك مني جنوناً ، لأن الأسد
 سكن برهة في مكانه ثم هز رأسه الكبير وزار زيباً هائلاً ، واستمد
 للوثوب ، ولا أكتبكم الحقيقة أنني فقدت رأسي حينما فكرت في
 الهرب ، لأنه من المخجل فعلاً أن فارساً مثل «مونشهاوزن» يسلم نفسه للإفرا
 ولكنني ما كنت أدير وجهي وأخطو بضع خطوات حتى وجدت

تساحاً مُرعباً ، وقد فتحَ فيه الواسع العريضَ مُستعدّاً لالتهام هذا الفارس !
تصوروا يا أصدقائي الأعزاء هذا الموقف المزعج ! فإِن خَلَقَ يُقَعِي
أَسَدٌ يَسْتَعِدُّ لِلوُثُبِ ، ومن أَمَامِي تَمَسَّحُ هَائِلٌ ، وَإِلَى يَسَارِي نَهْرٌ تَأْتُرُ
مَتَدَفِقٌ ، وَإِلَى يَمِينِي حَرَشٌ تَسْمَى فِيهِ الْحَيَاتُ ١ . ولو كان « هِرَ كِيُو لِس »
في مكانٍ لما فعل أكثرَ مما فعلتُ إذْ وقفتُ على الأرضِ وقد طَارَ صَوَابِي
من الفزعِ ، إذْ تَأَكَّدْتُ أَنِّي مَيِّتٌ لَا عَالَةَ إِلَّا فَرِيَسَةٌ فِي فَمِ التَّمَسَّاحِ أَوْ
بَيْنَ غَالِبِ الْأَسَدِ .

وَإِنِّي أَشْكُرُكُمْ يَا أصدقائي لهذه العاطفة النبيلة التي أراها مُرْتَسِمَةً
على وجوهكم جزعاً منكم على مصيري ! ولكن لا تَيَأَسُوا واطْمَئِنُّوا
فقد وقفتُ المعجزة . إذْ لم تَمُضْ لِحَظَاتٌ مِنْذُ سَقُوطِي عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى
سَمِعْتُ صَوْتًا غَرِيبًا ، فَلَمَّا رَفَعْتُ رَأْسِي قَلِيلًا لَأَتَعَرَّفَ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ رَأَيْتُ
- ويا لِلْعَجَبِ - أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ وَثَبَ فَوْقَ رَأْسِي فَوْقَ فِي فَمِ التَّمَسَّاحِ إِنَّهُ
لَمَنْظَرٌ رَائِعٌ فَلَمَّا أَنْ تَرَى رَأْسَ الْأَسَدِ وَقَدْ انْحَسَرَ فِي زَوْرِ التَّمَسَّاحِ ! يَبْنَا
حَاوِلْ كُلُّ مِنْهُمَا طَاقَتَهُ لِيَتَخَلَّصَ مِنَ الْآخَرِ . فَا كَانَ مِنِّي إِلَّا أَنْ
وَثَبَتْ كَالْبَرْقِ وَاسْتَلَّتْ مُدِيَّةً كَبِيرَةً وَأَخَذَتْ أَطْمَنُ بِهَا الْأَسَدَ
حَتَّى سَقَطَ بِجِسْمِهِ الْهَائِلَ عِنْدَ قَدَمِي . ثُمَّ أَخَذْتُ أَهْوَى بِمَوْخَرِ
بِنْدُوقِي عَلَى رَأْسِ الْأَسَدِ وَأَدْفَعُهُ دَفْعًا فِي خَلْقِ التَّمَسَّاحِ ، الَّذِي أَخَذَ بِصُرْخِ

من الألم . وبعد قليل عاد إلى صديقي ، فلما رأى ما فعلتُ تلك العجب حتى أنهم
يصدق عينيّه ، وذلك أنني تمكّنتُ بطلقة واحدة من القضاء على هاتين الفريستين
كان طول التماسح أربع عشرة قدماً وسبع بوصات ، ولما سمع
حاكم الجزيرة بهذه المغامرة النادرة أرسل عربة عليها جماعة من الرجال
الأشداء لحل الفريستين .

أما التماسح فقد خُطّ في الحال ، وهو ما زال إلى اليوم من المشاهد
الفريدة في متحف أستردام . ومن اللطيف أن ملاحظ المتحف إذا ما جاء
ذكر مغامراتي هذه كثيراً ما يُضيف إليها من عنده الشيء الكثير مما
يَقِفُ له شعُر السامعين فرعاً وخوقاً ؛ فن ذلك قوله : إن الأسد قد اختفى
بأكمله في بطن التماسح ، وإن البارون ذا الشهرة العالمية (وهو يعني
بذلك) ما أسرع أن حز رأس الأسد بعديته حالما برز من مؤخر التماسح
كما قطع نحو ثلاثة أقدام من ذيل هذا الأخير !

وإني لا أريد أن أعلّق على هذا بكلمة واحدة ، إذ يُؤسفني جداً أن
أسمع هذه الأكاذيب عني يلوّكها مثل هذا الرجل الحبيث المحتال ، كما
أنه من المؤلم أن أرى في هذا المصّر الذي نميش فيه والذي تسوده الشكوك
أن يُرتاب في صدق فارس يضع الشرف في المرتبة الأولى من حياته .

الليلة الثامنة

عند ما مررنا برأس الرجاء الصالح ونحن في طريق عودتنا إلى أوربا . سألتُ القبطانُ أن يَمِيلَ بنا إلى جزيرة « سنت هيلين » . فتمجَّب من أمرى وقال :

« وما الذى يَسْتَهْوِيكَ لزيارة هذه الجزيرة ؟ »

فقلت :

« لاشئ » أكثر من أن أعرف ما تحويه هذه الصخرة الشهيرة ؛ وإن كنتُ واثقاً من أنها لا تحوى شيئاً جديراً بالفرجة ، إلا أنه من الصعب على أن أنحو الكثير من الذكريات التى تفيض بها نفسى عند ما أسمع اسم « سنت هيلين » ؛ هذه الصخرة الجرداء التى كانت فى يوم من الأيام ذات شهرة سياسية كبيرة .

وما إن اقتربنا من الجزيرة حتى التقينا بسفينة إنجليزية ، أخذ أحدُ رجالها يُنادينا فى بوقٍ كبيرٍ مُستفسراً عن اسم سفينتنا واسم قبطانها ، فظهر أن القبطان الإنجليزى صديق قُبطاننا ، فدعونا لزيارتنا حيث قفى فى ضيافتنا بضع ساعات .

ولما عاد الثُّبُطَانُ إلى سفينة أسراً إلى قَرِيبِي الذي تحدثتُ لكم عنه؛
بأن سفينَتنا سَتُعَيَّرُ وجهها إذا أنها كَلَفَتْ بِحَمَلِ بعض الرسائلِ الهامةِ
إلى جُزُر الهند الغربية .

وقد رَجَبْتُ بهذا التغير المُفاجيء إذا أنه أتاح لي الفرصة لأعرفَ
حقيقةَ تيار الخليج الدافئ الذي كثيراً ما سمعتُ عن عَجائبه، وها قدحان
الوقتُ لكي أثبتَ منها بعينَي رأسي .

لقد كان الجوُّ حاراً لا يكادُ يُحتملُ، وفي إِبَّانِ النَّهارِ والشمسُ مُسَلَّطَةٌ
على الماءِ تصلُ مياهُ المحيطِ إلى درجةِ الغليانِ ، حتى إذا ما أرادَ أحدُ
المسافرين أن يَصْطَحي طعاماً ، من لحمٍ أو بيضٍ ، فما عليه إلا أن يغمسه في
هذا الماءِ القاتِرِ وسُرْعانَ ما ينضجُ .

ومن غرائبِ هذا البحرِ صُنُوفُ الأسماكِ العديدةِ التي تختلفُ
شكلاً ولوناً وحجماً، والتي راحتُ تَسْبَحُ وتَلْعَبُ حول السفينةِ . وكُنَّا
إذا اصطدنا بعضَ هذهِ الأسماكِ بالشَّعْرِ أو الشَّبَكَةِ فلا تلبثُ أن تفارقَ
الحياةَ إذا ما قابلتِ الهواءَ وكُنَّا نجدُها فوق ذلك مَطْبِيئةً مَدَّةَ لائِكلٍ
فنتهمها في حينها دون انتظار، وكان طعمُها مغرياً . وكُنَّا نَعَجِبُ لأمرها
شديدَ العَجَبِ ، ونَسْأَلُ : « كيف يتسنى لهذهِ الأسماكِ أن تعيشَ

وتلمب في هذا الماء الذي في دَرَجَةِ التَّلْيَانِ ! ثم وجدنا الجواب على ذلك معقولا مقبولا، فهذه الأسماك اكتسبت القدرة على احتمال الحرارة الشديدة بفضل المادة، فالألم - كما نعلم - يسخن شيئا فشيئا. وهكذا تموت الأسماك احتمال الحرارة تدريجياً حتى تصل إلى درجة التليان . فإذا اصطيدت وخرجت إلى الهواء البارد فإن الحرارة تنفذ إلى داخل السمكة فتقضى عليها وتسويتها في الوقت نفسه ؛ لهذا لم يكن في الأمر من غرابة !

...

وفي أثناء عودتنا من جزيرة «نيو فوندلاند» إلى أوربا جرت لنا حادثة تستحق الذكر ، ففي اليوم الثاني بعد أن تركنا هذه الجزيرة اصطدمت سفينتنا اصطداماً عنيفاً بشيء ظنناه في بادئ الأمر صخرة ، ولكن عند ما رجعنا إلى الخرائط البحرية لم نجد ذكر الصخور في هذه المنطقة ، فلما أدلينا الدلو الذي تقيس به عمق الماء إلى مسافة خمسمائة قصبة لم يصل إلى قرار . وكانت الصدمة عنيفة فتحطمت الدفة وتهشم مقدم السفينة ، فضلاً عن ذلك انفلقت السارية الوسطى إنفلاقاً رأسياً ، كل هذا ونحن لا ندرى سبباً لهذه الفاجعة .

وأسوأ من هذا كله أن أحد الملاحين كان يعمل إذ ذاك على رأس

السارية فإن حدث الاصطدام حتى رأينا مقذوفاً في الهواء ثم إذا به يسقط في الماء على مسافة ثلاثة أميال على الأقل من السفينة. ومع ذلك فقد واثاه الحظ فنجا بنفسه من الهلاك المحقق ، إذ تمكن من أن يعلق بذيل إوزة بحرية كبيرة فأمسك برقبته وأخذ يديرها هنا وهناك حتى اقترب من السفينة بعد لأى وتعب ، وبذلك أنقذناه .

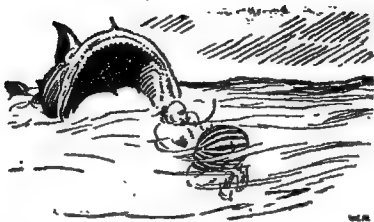
ولأضرب لكم مثلاً آخر لشدة هذا التيار ، ذلك أن جميع المسافرين - دون استثناء - كانت تقذف بهم الأمواج فتدك رؤوسهم في سقف المركب حتى إن رأسي من شدة هذا التدك هبط إلى أسفل بطني ، ومررت بضع شهور قبل أن يعود رأسي إلى مكانه الطبيعي من جسمي .

وفي مرة أخرى عرتنا الدهشة وتملكننا العجب عند ما مررنا بحوت كبير يسبح على وجه الماء ، ولملأه كان ناعماً ، وقد غمرته أشعة الشمس بالدفء والحرارة ، ولعل اقترابنا منه قد أزعجه لأنه بدا عليه القلق ، وأخذ يحرك ذيله ويدق به عرض السفينة ، ثم إنه جذب الهلب الذي كان معلقاً في مقدم السفينة وأطبق عليه بأسنانه ثم سحبنا وراءه نحواً من ثلاث عشرة ساعة قطعنا في خلالها ما لا يقل عن مائة ميل تقريباً ، حتى اقتربنا من الساحل الأمريكي ، فحدث - من حسن الحظ - أن انقطع الهلب

فَراحت السفينةُ من شدة الدوران تندفع إلى مصب نهر «لورانس» .
 فانهزنا الفرصة لإصلاح المطب الذي أصاب السفينة ، ولما عُدنا في
 طريقنا إلى المكان الذي وقعت فيه الصدمة وجدنا حوتاً ميتاً يطفو
 على وجه الماء ، بلغ طوله ما لا يقل عن نصف ميل . وكان من الطبيعي أن
 يستحيل علينا أن نرفع هذا المارد إلى ظهر السفينة ، فاكتملنا بتحطيم
 رأسه الضخم بعد مجهود كبير ، فما كان أشدَّ سرورنا عندما ألقينا في داخله
 ذلك الهلب المفقود ، كما وقعت أيدينا على سلسلة حديدية طولها أربعون
 قصبةً في حفرة سين من أسنانه اليسرى مصابةً بالتسوس . وإني
 أكتفي بهذا القدر من ذكر الغرائب التي صادفها في تلك الرحلة .

...

وأثناء رحلة لي في البحر الأبيض المتوسط تعرّضتُ لخطرٍ لا شك
 فيه . ففي عصر يوم من أيام الصيف كنتُ أستحم على الشاطئ قريباً من
 ميناء مرسيليا وكان الجوُّ بديعاً والماء دافئاً ، ولكنني لم يطل في الاستحمام
 حتى ألقيتُ أمامي سمكةً هائلةً تندفع نحوى بسرعة عظيمة وهي
 فاعرة الفم .



وكان من الطبيعي أن أفكر في طريقة أخرى غير الهرب ؛ لأنه من المستحيل أن يسابق أحدُ كائناتنا من كان الأسماك في السباحة ؛ لهذا لم يكن لشيء إلا أن أجمع جِسمي إلى أقلِّ حجمٍ مُمكنٍ ؛ فجذبتُ ساقِيَّ إلى بطني ، وضَممتُ ذِرَاعِيَّ إلى صدري ، وبذلك تحاشيتُ ما قد أصابُ به إذا ما انزلتُ إلى فم السمكة المفتوح وارتطمتُ بأسنانها الشوكية وأنا مندفعٌ بقوة إلى جوفها ، وقد حدثَ ذلك بالفعل . فلما استقرَّ بي المقام في جوف السمكة وجدت نفسي في شبه غرفةٍ مُغلقةٍ دامسةٍ الظلام ، وكانت الحرارة فيها لا تُطاق .

ولاشك في أنني كنتُ ضيقاً قليلاً على هذه السمكة ، إذ أنها حاولتُ ما استطاعتُ أن تتخلصَ مِنِّي دونَ فائدة ؛ وكانت كلما تتلوَّى من الألم

كنتُ أعملُ على زيادة مُضايقتها ؛ فكنتُ أنبُ وأتأرجعُ وارقصُ ،
 وكان كل ذلك يزيدُ من متاعِها . ولَمَّا لم تستطع السمكةُ احتمالَ السَّيِّئِ
 إلى وجهِ الماءِ فبدأ نصفُها يلعبُ تحتَ أشعةِ الشَّمْسِ ، وسُرعانَ ما تنبَّه لها
 جماعةٌ من الصَّيَّادين الإيطاليين . فأحاطتْ بها سفينَتُهُم وأهووا عليها
 بالخطاطيفِ فقبضوا عليها في بضعِ دقائق . وقد عرفتُ من حركاتِها التَّشْجِيئِيَّةِ
 التي تقومُ بها أنَّها كانت في صِراعٍ مميتٍ . فلما سكنت حركاتُها وثقتُ
 من أنها فارقتِ الحَيَاةَ .

أسرعَ الملاحونَ وحملوا السمكةَ إلى ظهرِ سفينَتِهِم وأخذوا
 يتشاورونَ عن الطَّرِيقَةِ المثلَى لثَقِ بطنِها بحيث لا يَضِيعُ من زَيتِها شيءٌ ،
 ولما كنتُ أعرفُ اللِّغَةَ الإيطاليَّةَ أصابني الهلعُ خوفاً من أنْ تُحْطَى
 سكاكينهم فَتُصَيَّبَ بسوءِ وأنا في جَوْفِ السمكةِ ، فانبَطَحْتُ على بطني ،
 وامتنستُ عن الحركةِ ، وإن كان قلبي دائماً الخفقانَ . وكان من حُسنِ
 حظِّي أَنَّهُم بدأوا عملِيَّتَهُم الجراحِيَّةَ هَـذِهِ من ظهرِ السمكةِ ، فإِنْ شَقُّوا
 جِدَارَ البطنِ فوقَ رأسي وَفَقَدَ ضوءَ الشَّمْسِ إلى مكاني حتَّى هَزَّتْ السُّرُورُ
 فرُحْتُ أَغْنَى وأنشدُ بمضِ الأغانى الإيطاليَّةِ التي كنتُ أعرفُها .
 فلَمَّا سَمِعَ الملاحونَ هَـذِهِ الأصواتَ منيئةً من جَوْفِ السمكةِ

أَخَذُوا يَصِيحُونَ وَيَصْخَبُونَ مِنَ الْفَزَعِ ، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ كُنْتُ أَشُقُّ
طَرِيقِي إِلَى الْهَوَاءِ ، وَمَا إِنْ رَأَى أَوْلَئِكَ الْمَلَّاحُونَ آدَمِيًّا يَخْرُجُ مِنْهُمْ
حَيًّا مِنْ جَوْفِ السَّمَكَةِ وَهُوَ يَرْتَدِي مَلَابِسَ عَجِيْبَةً حَتَّى اِزْدَادَ صِيَاخَهُمْ
وَاشْتَدَّ قَرْعُهُمْ .

وَبَعْدَ أَنْ هَدَأَتْ دَهْشَةُ هَؤُلَاءِ الْمَيَّادِينَ قَدَمُوا إِلَى بَعْضِ الطَّعَامِ
وَالشَّرَابِ وَرَحْتُ أَقْصَى عَلَيْهِمْ حِكَايَتِي مِنْ أَوْلَاهَا ، وَبَعْدَ أَنْ شَكَرْتُهُمْ
عَلَى نَحْوَتِهِمْ وَضِيَاقَتِهِمْ وَثَبْتُ إِلَى الْمَاءِ هَائِدًا إِلَى الشَّاطِئِ لِأَبْحَثَ عَنْ
مَلَابِسِي الَّتِي خَلَفْتُهَا هُنَاكَ فَالْفَيْتُهَا كَمَا هِيَ ؛ وَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى سَاعَتِي
وَجَدْتُ أَنِّي قَضَيْتُ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ حَيْسًا فِي جَوْفِ السَّمَكَةِ ؛
وَإِنَّهُ لَوْ قَدْ طَوَّلَ أَيُّهَا الْأَصْدَقَاءُ ! إِذَا تَذَكَّرْنَا الْمَكَانَ الَّذِي كُنْتُ أَقِيمُ فِيهِ ،
وَالْهَوَاءَ الْفَاسِدَ الَّذِي كُنْتُ أَتَنَفَّسُهُ !

الليلة التاسعة

أصدقائي الأعزاء ورفاقي الصيادين :

بعد أن قصصت عليكم أخبار مُغامراتي في البحر في ليلتي السابقة بقي على أن أصِفَ لكم كيفَ قُلتُ راجعاً من إيطاليا إلى قَيْنَا ، وكيفَ سافرتُ من هذه المدينة إلى القُسطنطينية في مُهمّة دبلوماسية لمقابلة السلطان ، لهذا أعتذرُ إليكم إذا قصّرت عن ذكر ماجرى إبان تلك الرحلة وإن كنتُ أرجو أن أعود إلى تفصيل أسرارها فيما بعدُ .

ولو أنّ حوادث هذه المُهمّة قد مضى عليها وقتٌ طويلٌ ، يَدَّ أنه ما زال على قيد الحياة كثيرون ممن اتّصلوا بها ، وليس من اللّياقة في شيء أن أعرض لهذه الحوادث التي تتصلُّ بأسماء شخصيّاتٍ كبيرة خطيرة الشّأنِ .

وأكتفي بأن أذكّرَ لكم في هذه اللّيلة ، أنني أُرسلتُ من بعض المقامات الثملياً كمُمثل دبلوماسي للقيام بمفاوضات مع السلطان ، وقد حملتُ أوراقَ اعتمادٍ رسميةٍ تُرخّصُ لي القيام بهذه المُهمّة .

لهذا سافرتُ من قَيْنَا حتى إذا ما وصلتُ إلى القُسطنطينية قُوبِلْتُ بمُفاوأة بالغة واستُقبلتُ استقبالاً رائعاً . وقد تمكّنتُ بمساعدة سُفراء رُوما وروسيا

القيصرية وفرنسا في القسطنطينية من أن يكون تقديمي إلى عظمة السلطان في استقبال رسمي . وقد سلّمت أوراق اعتمادى الرسمية إلى المترجم الذى كان من الضرورى أن يقدمها إلى الصدر الأعظم ، وهو الذى يرفّحها إلى الجانب المالى . وكما كانت دهشة ذلك الحفل الجاشد من السفراء والساسة والمُظَاهِر ورجال القصر ، عندما قطع السلطان على المترجم خطبة الترحيب ، ووقف ماذًا ذراعيه إلى وهو يقول :



— مونشهاوزن أهو أنت أيها الرجل الجسور؟ إتنا أصدقاء خالصاء ومعارف منذ زمن طويل لا نحتاج إلى خطبة المترجم لكي نتعارف ، أهلا بك أيها الرجل الفتي ومرحبًا بقدمك !

وليس غريبًا أن تُحدث هذه المفاجأة أثرها بين سفراء الدول لاسيًّا كبيرهم (دوايان) ، إذ كان من نتائج ذلك أن احتلت المقام الأول في البلاط السلطاني . وأصبحت صِلَتِي بِحَلَالَةِ السُلْطَان تختلفُ عن صِلَتِي بِهِ عند ما

كنت أسيرَ حربٍ في اسطنبول منذُ بضعِ سنين حين وُكِّلَ إليَّ إذ ذاك أمرُ
تربية النحل في الحدائق السلطانية .

...

حدثَ في الأيامِ الأخيرة أن قُتِرَتِ المَلاقاتُ بينَ مصرَ وتركيا ، وشكا
لى السلطانُ ذاتَ يومٍ ما أصاب نفسه من كيدٍ بسبب ذلك ، وكيف أنه لا يُعرَفُ
متى وكيف يتسنى له أن يَحُلَّ هذه المشكلة ، ويُقَرَّبَ ما بين أطرافِ النزاعِ بينهما .
ومِنَ الجائزِ أنه قد ارتسمتْ على وَجْهِ نظرةٍ خاصةٍ عند ما سَمِعْتُ
كلامَ السلطان ، لأنه عَقِبَ على - وهو يتسم بحبثٍ قاتلٍ :

— « أَتَحاوَلُ أن تَبْدُو شديدَ الحِرصِ يا مونسهاوزن ؟ يَينا أنتَ تريدُ في
الحقيقة أن تَسألَ : ولأى سببٍ جِئتُ إلى هذا المكان ؟ أليس هذا ما تَعْنِيهِ ؟
أليس كذلك ؟ »

فما كان مِنِّي إلَّا أن هزرتُ كَتِفِي مُوافقةً ، عند ذلك هاوَدَ السلطانُ الكلامَ :
— حسنًا حسنًا يا صديقَ العزيز ! فأنا عَليمٌ بكل ما هُناك ، ولكنَّ هذه
حالةٌ خاصةٌ تحتاجُ إلى وسائلٍ خاصةٍ كذلك . انظرْ إلى هذه التَّرجاتِ إن عَدَّتها
ثلاثمائة وخمسونَ درجةً ، وإنها تنتهي إلى طابقٍ لا تُرَفَفُ فيه الأذانُ لسماعِ
ما يدور فيه ، فأَسْرِعْ وأَلْحَقْ بِي فَإِنِّي سأَقْضِي إِلَيْكَ بِسرٍّ صَحيحٍ ، ألا فأَسْرِعْ !
وما ان أُنِمَّ كلامُهُ حَتَّى وثبتُّ على قَدَمِيَّ وارْتَقَيْتُ الدَّرجاتِ حَتَّى

وصلتُ إلى قمتها في شيء من الجهد ، وهناك طِفقتُ أنتظرُ السُّلطانَ الذي لِحِقَ بي منها الكآ بعد قليل وهو يهرول بحمسه المتكدس .

ولم يُطلْ بي المُقامُ ، ولو أن السُّلطانَ قضى نصفَ ساعةٍ كاملاً وهو يتعمَّر في نفسه ، ولم يكنْ لِيستطيعَ أن يفتحَ فَمَهُ إلَّا ليقولَ لي « صبراً صبراً » . وما كنتُ قليلَ الصبرِ ، ولكنتي في خلال ذلك كنتُ أنظر ملياً إلى هذا الوجه المنفعل .. وأظنكم راغبين في أن تعرفوا ما إذا كان السُّلطانُ قد أفضى إليَّ في النهاية بهذا السرِّ ؟

ويمكنني أن أقول إن هذا حصلَ بالفعلِ ، وإنني شديدُ الأسفِ إذ يتعدَّر عليَّ أن أكرِّرَ لكم ما دار بيني وبينَ السُّلطانِ . لأنكم تعلمون تمامَ العلمِ أن هُناكَ من الأسرارِ الدُولِيَّةِ ما إذا أُفْشِيَ خبيثُها كان سبباً في إشعالِ نارِ حربٍ أُورِيَّةٍ لا محالة .

ومع ذلك فأنني أُؤكِّدُ لكم أن هذا السرُّ ممَّا يدعو إلى رفعِ الرأسِ عاليًا ، وفضلاً عن ذلك فإنَّ السُّلطانَ قد أقسمَ لي على القرآنِ وبشرفِ النَّبيِّ الكريمِ عليَّ أن يجعلَ أمرَ هذه المِهْمةِ سرّاً مكتوماً وإنه لن ييُوحَ بكلمةٍ لكانَ من كان ولن يذكَرَ شيئاً عن الغايةِ من هذه المِهْمةِ التي أوفدني بها إلى القاهرة ، لذلك وجدتُ نفسي مُلْزَماً لأن أقسمَ بشرفي كنبيلِ ألمانيٍّ عليَّ أن أحفِظَ بهذا السرِّ ، وقد وعدتُ السُّلطانَ بذلك .

وَكُلُّ مَا أَقُولُهُ لَكُمْ هُوَ أَنَّ مُهْمَتِي هُنَا صَادَفَتْ نَجَاحًا وَارْتِيَاحًا عِنْدَ السُّلْطَانِ ، وَالِدَلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ رَأَى بَعْدَ ذَلِكَ بَقِيلٍ أَنَّهُ يُكَلِّفُنِي بِمَهْمَةٍ مُشَابِهَةٍ ، فَأَرْسَلَنِي مَنُودِيًا مِنْ قَبْلِهِ إِلَى شَاهِ إِيرَانَ . وَهَذَا مَا سَأُقْصُّ عَلَيْكُمْ خَبْرَهُ فِيمَا بَعْدَ .

...

فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أَرْمَعْتُ فِيهَا السَّفَرَ إِلَى الْقَاهِرَةِ قَضَيْتُ ، الْمَسَاءَ فِي جَوْشَنَ فِي حَدَائِقِ الْقَصْرِ يُطَلَّ عَلَى الْبَحْرِ ، وَأَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْحَدِيثِ ، وَتَدَارَسْنَا مَا يَجِبُ وَمَا يَحُوزُ أَنْ أَقُومَ بِهِ إِذَا مَا وَصَلْتُ إِلَى نَائِبِ السُّلْطَانِ فِي مِصْرَ ، وَانْتَقَلَ بِنَا الْحَدِيثُ إِلَى الْكَلَامِ عَلَى مُغَامِرَاتِي السَّابِقَةِ فِي الْجَيْشِ الْبُرُوسِيِّ فَقَصَصْتُ عَلَى مَسَامِعِ السُّلْطَانِ إِحْدَى هَذِهِ الْمَغَامِرَاتِ إِبَّانَ حِصَارِ مَدِينَةِ حَصِينَةَ لَا أَذْكُرُ عَنْهَا الْآنَ شَيْئًا كَثِيرًا .

وَأَنْتُمْ تَذْكُرُونَ يَا أَصْدِقَائِي وَرَفَاقِي الْأَعْزَاءَ مَا قَصَصْتُ عَلَيْكُمْ فِي جَلَسَاتِنَا السَّالِفَةِ مِنْ طَرَائِفِ هَذِهِ الْمَغَامِرَاتِ ، وَمَعَ أَنَّ مَا رَوَيْتَهُ لِلْسُّلْطَانِ لَا أَعْتَبِرُهُ إِلَّا تَافَهًُا بِالْمُقَارَنَةِ إِلَى مُغَامِرَاتِي الْأُخْرَى ، وَلَكِنَّ السُّلْطَانَ وَجَدَ هَذِهِ الْحِكَايَةَ جَدِيدَةً بَأَنَّهُ تُقَصُّ عَلَى الْأَسْمَاعِ ، لِهَذَا رَأَيْتُ مِنَ الْمُنَاسِبِ أَنْ أُعِيدَ ذِكْرُهَا عَلَيْكُمْ .

...

حَدَّثَ مَرَّةً أَنَّ كُنَّا نُحَاصِرُ مَدِينَةً صَغِيرَةً لَا أَذْكُرُ مَكَانَهَا ، وَكَانَ قَائِدُنَا تَمُوزُهُ أَخْبَارُ مَا يَجْرِي وَرَاءَ حِيطَانِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْمُحَصَّنَةِ ، وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ وَسِيلَةٌ

من الوسائل التي يمكنُ بها إرسالُ جاسوسٍ خُفيةً إلى الحصن مغضمان النجاح في مهمته ؛ وبينما أخذت أفكر في الصَّعَابِ والمخاطرِ التي يتعرض لها من تُسَوَّلُ له نفسه أن يتسرَّبَ إلى خُطوطِ الأعداءِ وخافِزِهِمْ وتحصيناتهمِ المنيعَةِ ، إذا بِمخاطرٍ يَتمَلِكُنِي ويَحْمِلُنِي أَفْكَرٌ في وسيلةٍ أُخرى لتحقيق هذه الغاية .

ودون أن أَفْضِيَ إلى أحدٍ بما عَزَمْتُ عليه وثَبْتُ على قَدَمِيَّ واندَفَعْتُ إلى أحدِ المدافعِ الكِبيْرةِ المصوَّبَةِ نحوِ الحصنِ ، وأَعْطَيْتُ أَمْرًا بِإِطْلَاقِ النَّارِ من هذا المدفعِ في دَقِيقَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، فوقف المدقُّ بِحِمْلٍ مُشْمَلَةٍ يَنْتَظِرُ الوَقْتَ المُحَدَّدَ



لإشغال البارود، وما إن انطلقت القنبلة حتى وثبت في الفضاء وتعلقت بها حاملة إياي في طريقها إلى الهدف .

وبينا كنت في طريقي مُعلّقا في الفضاء مرّت بذهني خواطرٌ مُتلاحقة فقلتُ لنفسي : قد تصلُ سالما إلى الحصن ، ولكن كيف لك أن تعود من حيثُ أتيتَ فتخرجَ من هذا الحصن دون أن يتنبّه إليك أحدٌ ، فرغبتُ المُنحمة لتقوم بواجبك العسكري لم تسمع لك بخلع هذا الزي الذي يفضحك إذا وصلت إلى الحصن ، وليس من شك في أنه سيُقبض عليك وتلقى حتفك على أقرب مشنقة ! ولكن هذا لن يكون ، ومتى كان آل موشهاوزن يحتمون حياتهم على هذا النحو ؟

عند ذلك طرأت على فكرة جديدة ، فقررت في التوّ أن أئيب على أوّل قنبلة طائرة من الحصن لأعود بها من حيثُ أتيتُ كما لو كانت عربة في انتظاري ، وما هي لحظةٌ حتى لمحتُ قريبا مني إحدى هذه القنابل المسددة من الحصن ، فاتهزت الفرصة ووثبتُ من قنبلي إلى قنبلة العدو وتعلقتُ بها . وهكذا عُذبت ثانية إلى المسكر دون أن أنجز المهمة إذ ذاك، ولكنني لم أتورّع من تكرار التجربة بعد ذلك .

فا إن سَمِعَ السلطانُ ذلك حتى انفجرَ من الضحك وقال - وهو يقبضُ على بطنه من شدة ضحكه - : « نعم نعم يا موشهاوزن إن ذلك جائزٌ ومعقولٌ جدا

ولكنَّ المهمةَ كانت - ولا شك - جسيمةً .

فأجبتُه : « حقاً أنها كانت مهمةٌ جدَّ خطيرةٍ يا صاحبَ الجلالة ، ولكنتي أحمد الله الذي نجَّاني من مصيبةٍ واقعةٍ : لأنَّ القنابل - كما هو معروف - ملساء وكان من الصعب أن يُحافظ الإنسانُ على توازنه فوقها ، وكان من الأصوب أن يقومَ بهذه المهمةِ رجلٌ أنصرُ شباباً »

...

وفي اليومِ الثاني ، وبينَ مظاهر التَّكريمِ الباهرةِ كسفير من السفراء بارحتُ القُسطنطينيةَ وفي ركابي حاشيةٌ كبيرةٌ كما يتطلَّبُ ذلكَ مركزى الخطير . وتفضَّلَ السلطانُ فصحبني حتى ساحلِ البحر ، وبينما هو يسكني بكتلتنا يديه مُودَعاً همساً في أذني قائلاً : « أَرْجوكَ يا مونشهاوزن أن تَقْلَعَ عن مُغامراتك الجنوبيَّة ، فأنتَ تعلمُ نوعَ المهمةِ المُلقاةِ على كتفك » .

ولم أجِبْ على كلامِ السلطانِ بأكثرَ مِن أن أعقِدَ ذراعى على صدري ، وأن أُنحني صامتاً دون أن أتكلَّم . وقد فهمَ السلطانُ ما أعنيه بانحنائي وسكوتي ، فتبعنا بيديه حتى حملتنا القواربُ إلى الشاطئِ الأسيويِّ أمامِ اسطنبول ، ومن ثم بدأنا رحلتنا الطويلةَ إلى القاهرة على ظهور الجمال .

...

كانت حاشيتي كبيرةً المددِ ومع ذلكَ فإني لم أتردَّد في أن أضيفَ إليهم

عدداً آخر التفتيت بهم في الطريق ممن كنت في حاجة إلى خدماتهم .
 كم من مرة طوّفتُ فيها بأوروبا وقطعتُ مئات الأميال ولم يحدثْ مُطلقاً
 أثناء رحلاتي تلك أن قابلتُ من مختلف الناس مثل ما قابلتُ في خلال هذه
 الأيام القليلة وأنا في طريق إلى القاهرة . وأريدُ أن أوكدَ بهذه المناسبة أن من
 يرغب في أن يرى عجائب الحياة فليس له إلا أن يسافر إلى قارة أخرى .

...

لم يطلُ بنا السيرُ بعيداً عن اسطنبول حتى رأيتُ على قارعة الطريق
 رجلاً في متوسط العمرِ باديةً عليه علاماتُ الصَّعة وهو يجري بِسرعةٍ فانت
 سرعة القافلة ، والمجيبُ في ذلك أن كل قدم من قدميه كانت مُقْبِدةً بِمحلةٍ ثقيلة
 من الحديد يبلغُ وزنها بضع أرتال .

فناديته وقلتُ له : « إلى أين أيُّها الأخ ؟ وما بالكَ مُسرِعاً ، وما بك حتى
 قَسَوْتَ على نفسك بهذه الأثقال التي تُعجزُ الإنسانَ عن الحركة ؟ »

فأجابني الرجلُ : « إنني نشأتُ في أسرة من المدّائين المشهورين بالسرعة
 لهذا أشاع عَنَّا الناسُ أن أجسامنا خاليةٌ من الطَّحال ، ولكن كلُّ ما أقوله
 هو أن أحداً منا لم أستمعْ يشكى بالسويداء كغيره من الناس . أمّا سرُّ هذا
 الدَّقل المَقوودِ حَوْلَ ساقٍ فذلك لكي أَحِدَّ من قُدْرَتِي على سرعةِ المَدْوِ ؛ فنذُرُ
 ساعتين اثنتين خرجتُ من بلادِ المغربِ حيثُ أعملُ عِذاءً في خِدمةِ داي الجزائرِ ،

وفي هذا الصباح كلّفتي مُمْنُوهُ بِرَحْلَةٍ طَوِيلَةٍ عَلَى أَنْ أَعُودَ إِلَيْهِ بِالْخَبْرِ فِي الظُّهْرِ، وَلَمَّا
كُنْتُ مُجْهِدًا لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَصِلَ إِلَى الْقَصْرِ فِي الظُّهْرِ كَمَا أَمَرَنِي فَلَمْ يَكُنْ مِنْ مُمْنُوهُ إِلَّا



أَنْ طَرَدَنِي مِنْ خِدْمَتِهِ، وَهِيَ أَنْتَ تَرَانِي أُضْرَبُ فِي الْأَرْضِ عَلَى غَيْرِ هُدًى
وَلَيْسَ مَعِيَ مِنْ زَادٍ إِلَّا كِسْرَةُ خُبْزٍ فِي يَدَيَّ وَتَفَاحَتَيْنِ فِي جِيبِي، وَقَدْ عَلَقْتُ
هَذَيْنِ الثَّقَلَيْنِ حَوْلَ سَائِقِي حَتَّى أَتَمَهَّلَ فِي سِيرِي، لِأَنِّي لَا أَرْغَبُ فِي أَنْ أَذْهَبَ

أبعد من القسطنطينية التي سوف أصل إليها في أقل من نصف ساعة، وهناك سأبحث عن عمل جديد .

ولم يكن في هذا الرجل ما يُنفّرني منه لذلك سألتُهُ عما إذا كان يرغبُ في أن يدخلَ في خدمتي . وقد تملّكني الشُّرورُ عند ما قبلَ ، فَخَصَصْتُ لَهُ جَلًا لركوبه ، وما أترعَ أن أصبحَ واحدًا مِنَّا . ولكنّه كان من وقتٍ لآخرَ ينزلُ عن جلّه ويعودُ أمامَ القافلة مسافةً بضعة أميالٍ ويعودُ قافلًا كالبرقي . وكانت غايتهُ من ذلك أن يحتفظَ بمراتبه وقدرته على العدو السريع .

...

كان هذا أيُّها السّادة أوّلَ من انضمَّ إلى القافلة ، وقبلَ أن ينصرمَ هذا اليومُ نفسه صادفتُ في الطريقَ رجلينَ ليسا أقلَّ غرابةً من صاحبنا هذا .

أما أحدهما فقد مرّنا به راقدًا على قارعة الطريق وكان طريقًا منحدرًا قد غطّته الحشائشُ ، فظننا في بادئ الأمرِ أنّه نائمٌ ، ولكنّا عند ما اقتربنا منه وجدناه مفتوحَ العينين تشيعُ في وجهه البهجةُ كأنّه يُروّحُ عن نفسه أو يتسلّى بمفرده .

فسألتُهُ : إلى ماذا أنت مُنصتُ يا صديقي ؟

فأجابني : إنني أسلّي نفسي بمراقبة هذه الحشائشِ لأعرفَ كيف تنمو ؛ وذلك بأن أسترّق السّمَمَ وأنصتَ إليها أثناء نموها .

— أَمِيقًا مَا تَقُولُ؟ أَوْ مُمَكِّنٌ ذَلِكَ؟

— إِنِّي لَا أَهْزِلُ يَا سَيِّدِي . بَلْ إِنِّي قَادِرٌ عَلَى أَنْ أَسْتَرْقَ السَّمْعَ إِلَى أَشْيَاءٍ أُخْرَى غَيْرِ الْحَشَائِشِ وَطَرِيقَةِ نَعْمُوهَا .

فَأَجَبْتُ : إِنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَيْكَ يَا صَدِيقِي ، تَعَالَى وَانضمَّ إِلَى جَمَاعَتِنَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُرْهِفَ السَّمْعَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ .

وَمَا أَسْرَعَ أَنْ وَثَبَ « مُسْتَرْقُ السَّمْعِ » هَذَا وَانضمَّ إِلَيْنَا . فَهَذَا هُوَ ثَانِي الرَّجُلَيْنِ .

...

وَبَعْدَ سَاعَةٍ صَادِقَةٍ فِي طَرِيقِنَا صَيَّادٌ مُحِيطٌ بِبُنْدُقِيَّةٍ ، وَبَعْدَ أَنْ أَمْعَنَ النَّظَرَ فِي الْفَضَاءِ الْفَسِيحِ أَطْلَقَهَا دُونَ أَنْ يَلْمَعَ أَمَامَنَا الْمَهْدَفُ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُصِيبَهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَفَ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ وَأَخَذَ يُحْمَلِقُ وَكَأَنَّهُ يَحَاوِلُ أَنْ يُدَقِّقَ النَّظَرَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ .

فَصَحْتُ فِي وَجْهِهِ : أَيُّهَا الرَّجُلُ ، إِنِّي لَا أَرَى إِلَّا الْفَضَاءَ الْفَسِيحَ ، فَأَيُّ هَدَفٍ هَذَا الَّذِي صَوَّبْتَ إِلَيْهِ بُنْدُقِيَّتَكَ لِأَنِّي لَا أَرَاهُ .

فَأَجَابَنِي : إِنِّي أَجْرَبُ هَذِهِ الْبُنْدُقِيَّةَ الْجَدِيدَةَ ، فَهَنَّاكَ عَلَى رِقَّةِ الْكَنِيسَةِ فِي مَدِينَةِ « اشْتَرَامْبُرج » عُمْصُورُ وَقد تَمَكَّنْتُ بِالْفِعْلِ مِنْ إِصَابَتِهِ ! يَا لَهَا مِنْ بُنْدُقِيَّةٍ جَمِيلَةٍ !

وإذ كنتُ صيَّاداً بارما فقد أثار إعجابي وتقديرى هذا الرجلُ الذى يُصيب
الهدف إلى هذا المدى ، لهذا لم يكنْ بدُّ من أن أسمح له بالدخول فى خدمتنا ،
لأنَّ هذه البراعة كثيراً ما أكونُ فى حاجةٍ إليها . وهذا هو رفيقنا الثالث .

...

وكنّا فى كل مساء إذا حلَّ الليلُ نزَلنا فى بعض الخانات للبيت ، وكان
صديقنا الصيَّادُ هذا يقضى ساعةً أو ساعتين وهو يقصُّ علينا من طرائف
مُنامراته فى الصيد والقنص .

وحدث مرةً بعد ذلك - وقد وصلنا إلى جبلٍ بُنَّان - أن شاهدنا رجلاً بدينًا
مفتولَ العضل يحملُ حبلًا طويلًا يريد به أن يطوق حرسًا من أحراش شجر
الأرز ، فدفعني حُب الاستطلاع إلى أن أقف وأسأله حقيقة أمره .

— ماذا تبني يا صديقى بعملك هذا ؟

فأجابنى : إني جئتُ لجمع شيء من الحطب ولكنتى مع الأسف نسيت
فأسى فى البيت فلم يكنْ بدُّ من أن أتجامل على ذلك بوسيلةٍ أخرى وقد نجحتُ
بالفعل ، فها أتم تروُن أننى قد طَوَّقْتُ أشجارَ هذه الغابة بالحبل . . ولكن
أرجو معذرةً فإنَّ الأشجار قد أوْشكت على السقوط ، فليكنَّكم أن تبتعدوا قليلا .
وما إن اتتهى من كلامه حتى سحب الحبل سحبةً عفيفةً وماهى الإلحظة

حتى أنهارت الأشجارُ وكانت تُنطى ميلاً مريماً من الأرض ، لقد رأيتها تتساقطُ أمامَ عيني وكأنها البوصةُ الناشقةُ ! .



وليس لي أن أذكرَ لكم ما حدثَ بعدَ ذلك ، فكلُّ ما هناك أتى لم أرِدْ أنْ أصيِّعَ هذهَ الفرصةَ وأتركَ هذا الرجلَ العجيبَ يسيرُ في حالِ سبيله ، بل ضمَّتهُ إلى جماعتي بعدَ أن منحتُه أجراً باهظاً ، هذا هو رفيقنا الرابعُ .

...

قضينا بعدَ ذلك أسبوعاً في الطريقِ حتى عبَرنا الحدودَ المصريَّةَ وهناك صادفنا ريحٌ عاتيةً كادتْ مِن شدَّتها أنْ تحمِلَنا في الهواءِ .

وبينما نحنُ كذلكِ إذْ رأينا على جانبِ الطريقِ سبعَ طواحينِ هوائيةٍ كانتْ أجنحتها تدورُ بِسرعةٍ عجيبةٍ كأنها طارئةٌ منزلٍ سريعٍ ، وإلى جانبِ هذهِ الطواحينِ وقعَ نظرُنا على رجلٍ عظيمِ الجثةِ وقد سدَّ فتحةَ أفِّهِ اليَمْنى بسبَّابتهِ ...

وما كاذَ الرَّجُلُ يَرَانَا وَيَرَى صِرَاعَنَا مَعَ الْعَاصِفَةِ حَتَّى دَارَ دَوْرَةً وَوَقَفَ
قُبَالَتِنَا ثُمَّ أُنْخِئَ قَلِيلاً وَرَفَعَ عِمَامَتَهُ . وَمَا كَاذَ يَعْمَلُ ذَلِكَ حَتَّى هَدَأَتِ الْعَاصِفَةُ
وَوَقَفَ دُورَانُ أَجْنَحَةِ الطَّوَاحِينِ !

فَصَحْتُ مِنَ الْعَجَبِ : مَا حِكَايَتُكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ ؟ أَيْسَكُنُ فِيكَ شَيْطَانٌ ؟
أَمْ أَنْتَ الشَّيْطَانُ قَسَةً !

— مُعْذَرَةً يَا صَاحِبَ السَّعَادَةِ ، إِنِّي كَمَا تَرَى أَعْمَلُ طَحَّانًا ، فَإِذَا كَانَتِ الرِّيحُ
سَاكِنةً لَا تَتَكِنِي لِتَسِيرِ هَذِهِ الطَّوَاحِينِ فَا عَلَى إِلَّا أَنْ أُسَدَّ إِحْدَى قَتَعَتِي أَنِّي أ
فَسَأَلْتُهُ كَيْمَ يَمْنَحُهُ سَيِّدُهُ مِنْ أَجْرِ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ الْعَظِيمِ ؟ فَلَمَّا ذَكَرَ لِي
مَقْدَارَهُ - وَكَانَ طَفِيفًا - عَرَضْتُ عَلَيْهِ أَنْ أَمْنَحُهُ عَشْرَةَ أَصْغَافِهِ ، وَبِذَلِكَ تَيْسَّرَ لِي
أَنْ أَصْنَعَهُ إِلَى بَطَانَتِي ، وَهَذَا هُوَ رَفِيقُنَا الْخَامِسُ .

وَهَكَذَا سِرْنَا فِي طَرِيقِنَا إِلَى الْقَاهِرَةِ حَيْثُ قَضَيْنَا أَرْبَعَةَ أَشْهُارٍ أَسَاسِيَعٍ أَنْجَزْتُ
فِي خِلَالِهَا الْمِهْمَةَ الَّتِي جِئْتُ مِنْ أَجْلِهَا وَنَجَحْتُ نَجَاحًا عَظِيمًا أَكْثَرُ مِمَّا كَانَ يُتَوَقَّعُ
السُّلْطَانُ . وَقَدْ كَانَ لَدَيْكَ أَرْوَةٌ فِي عِلَاقَاتِ السُّلْطَانِ بِمَا نَدْعُوهُ الدُّوَلُ الثُّغْمَى ،
وَلَكِنْ يُؤْمِنُونِي أَنْ أَمْتَنَيْعَ مِنْ ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ هَذَا لِأَنَّهُ سَرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ ،
وَلَمَّا انْتَهَتْ مُهِمَّتِي أَرْسَلْتُ بِطَانَتِي جَمِيعَهَا إِلَى اسْطَنْبُولِ بِخَطَابٍ مَنِيَّ إِلَى
السُّلْطَانِ وَلَمْ أُسْتَنْ مَيُوسَى خَادِمِي الْخَامِسَ ، إِذْ رَغِبْتُ فِي أَنْ يَصْحَبَنِي فِي رَحَلَةِ
عَلَى النَّيْلِ أَقُومُ بِهَا لَا كَسَفِيرٍ سِيَاسِيٍّ بَلْ كَرَجُلٍ عَادِيٍّ .

الليلة العاشرة

عقدتُ العزمَ وأنا في القاهرة على أن أقومَ برحلة على النيل ؛ وقد ذكرتُ لكم خبرها في الليلة السابقة ، وكل ما يُمكنني أن أضيقه الى ذلك هو أن أحدَ ممارفي حدّرتي من القيام بهذه الرحلة ، إذ أن فيضانَ النيل شديدُ الخطورة ، ومع ذلك لم أعبأ بهذا التحذير بل استأجرتُ مركباً شراعياً وجماعة من الملاحين والخدم ، ووسقتُ المركب بما نحتاج إليه من طعام يكفيننا مدّة طويلة .

بدأتُ رحلتي النيلية وكان كل شيء يُبشّرُ بنزهة جميلة ، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً . فلما انقضى اليوم الرابع أو الخامس لاحظتُ أن ماء النيل أصبحَ أحمر اللون وأخذ يطنني على شاطئيه فلما أصبح الصّباح بدأ الماء يفيضُ ويندفعُ بسرعةٍ شديدة ، وما إن أتمى المساء حتى امتدّت مياه الفيضان شرقاً وغرباً وطغّت على الحقول والأودية فغمرت مئات الأميال من الأرض ، وبعد ساعة من ذلك شعرنا بأن المركب قد تمثّر بشيء من الأشياء ، ولما كان الظلام ضارباً أظننا به لم تتحقّق ماهية هذا الشيء الذي لا يُعدّو أن يكونَ عريشة من الحشائش ، ولم نرُد أن نتبيّن حقيقة الأمر حتى يُصبح الصّباح .

ولما كان اليومُ التّالي وجدنا أن ما تمثّر به المركب ليس إلا كومة من اللوز انغمس فيها مقدّم المركب ففاقه عن كلّ حركة وكان ذلك من

حُسْنِ الحَظِّ ، وبعد قليل هَبَّتْ رِيحٌ عاصِفَةٌ فدفعت المركبَ إلى جنبِهِ قالَ
وغيرَ الماءِ الذي غمرَ ما كُنَّا نَحْمِلُ من طعامٍ . ولكنَّ الحَظَّ كانَ مُواثِقًا لائِنَّا
على الأقلِّ اسْتَعَضْنَا بما وجدناه من اللُّوزِ مما قدناه من الطعامِ فَعِشْنَا جميعًا
(إذ كُنَّا ثمانية رجالٍ وصبيّين) على هذا اللوزِ ، واحتَمِينَا من شرِّ الفيضانِ بفروعِ
الأشجارِ ، فقضينا على هذا النَّخْوِ خمسةَ أسابيعَ ونصفًا حتى بدَأَتْ مِياهُ الفيضانِ
في الانخفاضِ .

وقد امتلأنا فرحًا عندما بدَتِ الأرضُ من تحتِنَا وقد غطَّها الأوحالُ ،
فزلَّنا من الأشجارِ وصِرْنَا نَخْبِطُ حتى وصلنا إلى المركبِ الذي اكتسحتهُ
الأمواجُ إلى مسافةٍ ما بَئِي قُصْبَةٍ على الأقلِّ من المكانِ الذي انقلبَ فيه ، وجدنا
أنَّ جانبًا مِنَ الزَّادِ المخزونِ فيه ما زالَ صالحًا للأكلِ ، فكانَ طعمُهُ شَهِيًا بمدِّ تلكِ
الأسابيعِ التي قضيناها ونَحْنُ لا نَظْمُ إِلَّا اللُّوزَ .

وكانَ عَلَيْنَا أن نسيرَ على الأقدامِ مسافةً لا تَقِلُّ عن مائةٍ وسبعةٍ وثلاثينَ ميلًا
حتى نَصِلَ إلى بحريِ النَّهْرِ الطَّيِّبِ الذي انحصَرَتْ عَنْهُ المِياهُ . وأَشَقُّ مِنْ هذا
أنَّهُ كانَ عَلَيْنَا أن نخطيَ أسوارَ الحدائقِ والبساتينِ التي كانتِ تَعَرِّضُنَا والتي كانتِ
من قبلِ مغمورةً بالماءِ . وعند ما وصلنا إلى النَّهْرِ تَفَضَّلَ عَلَيْنَا أحدُ البِكواتِ
وأغارنا مَرَكَبًا آخَرَ حملنا إلى الإسكندريةِ فوصلنا هذه المدينةَ بعد سبعةِ أيامٍ ،
ومن هناكِ أُنْجَرْنَا إلى «اسطنبول» .

وكانت المتاعب التي صادفها أولئك الرجال الذين صَجِبُوا في هذه الرحلة
لأنهم فضلوا عن أنهم فقدوا مرَّ كِبَهُمْ مما جعل آيةً مُكَافَأَةً تقديراً تُقدَّمُ إليهم
لا تُساوي هذا المجهود، ولكنهم مع ذلك كانوا جدًّا مغتبطين لأنهم قضوا سبعة
أسابيع في صحبة «مونشهاوزن» للشهور ومتصين بفروع الأشجار، ولا يأكلون
خلال ذلك إلاَّ اللوز. فَمِنْ هَذَا تَرَوْنَ يَا أَصْدِقَائِي الْأَعْزَاءُ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَحْمِلُ
أَسْمًا مشهوراً يَحْدُ مِنْ يُقَدَّرُ عَظَمَتُهُ فِي أَيْ مَكَانٍ يَنْزِلُهُ.

...

وإني لا أريدُ أَنْ أَوْكِّدَ لَكُمْ - بعد أن نَبَحْتُ في مُهِمَّتِي الدبلوماسية
ووصلتُ إلى نتائج رائدة - أَنَّ السُّلْطَانَ جَعَلَنِي مَوْضِعَ تَقْدِيرِهِ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلِ .
فإذا حَدَّثَ وَقَالَ أَحَدُكُمْ فِي مَعْرِضٍ «لِيَبْرُجْ» رَجُلًا تَرْكِيًّا، وَسَأَلَهُ عَنِ الْبَارُونِ
مونشهاوزن، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ تَرْكِيًّا حَقِيقَةً فَإِنَّهُ سَوْفَ يَقْصُ عَلَى سَائِلِهِ الشَّيْءَ
الكثيرَ عن صداقِي السُّلْطَانَ، وَكَيْفَ أَنَّهُ بَعَثَنِي إِلَى «اسطنبول» فِي مِهْمَةٍ جَعَلَتْ
أَسْمِي مَعْرُوفًا بَيْنَ أَنْحَاءِ تَرْكِيَا .

وبعد قليلٍ أَصْبَحَ جَلَالَةُ السُّلْطَانَ لَا يَسْتَنِي عَنِّي، فَكَانَ يَدْعُونِي إِلَى مَائِدَتِهِ
فِي الظُّهْرِ وَفِي الْمَسَاءِ؛ وَيَحْسُنُ بِي أَنْ أَقَرِّرَ بِهِذِهِ الْمُنَاسِبَةِ أَنَّ مَائِدَةَ السُّلْطَانِ التَّرْكِيِّ
تَفُوقُ مَوَائِدَ الْأَمْرَاءِ جَمِيعًا بِمَا تَحْوِيهِ مِنْ أَشْهَى الْأَوَانِ الطَّعَامِ . وَلَا يَنْقُصُهَا إِلَّا
شَيْءٌ وَاحِدٌ، إِذْ أَنَّ أَتْبَاعَ مُحَمَّدٍ - كَمَا تَعْلَمُونَ - حُرِّمَ عَلَيْهِمْ شَرْبُ النَّبِيذِ .

وحدث مرة أن أصرَّ إلى السلطان قائلاً :

« لدى يا مونشهاوزن مفاجأة طريفة لك ، فأتهم معشر المسيحيين يُقبلون على شرب النبيذ وتعرفون صنوفه وألوانه . لهذا فإني سأهديك بزُجاجة من نبيذ توكاي المشهور الذي قد أهدانيه أحد أمراء المجر . ولا أريد منك بعد أن تتذوّقه إلا أن تُخبرني عن نوعه ، إذ أننا معشر المسلمين لا نيسُّ شفاهتنا شراباً غموراً . » فلما تذوّقت النبيذ هزّت رأسى موافقةً ، بيد أن السلطان أصرَّ على أن أمارحه بالحقيقة ، عند ذلك أجبتُه بقولي :



« يا صاحبَ الجلالةِ لا أريدُ أن أقولَ إلّا ما أعتقد ، وأنا خيرُ بالنبيد ، فكم احتسيتُ من دنانِ النَّبِيدِ الْمُتَّقَى في بلاطِ المرحومِ الإمبراطورِ شارلِ السادس ، فإذا قارنتُ ذلكَ بهذا النَّبِيدِ ، فليس لي إلا أن أقررَ يا صاحبَ الجلالةِ بأنه نبيذٌ ماديٌّ غيرُ مُتَّقَى ولو أنه من كرومِ توكاي نفسها . »

« ولو سمعتُ لي يا صاحبَ الجلالةِ بالمراهنةِ وذلكَ بطلبِ زجاجةٍ من نبيذِ توكاي المخزونة في القصرِ الإمبراطوري في فينا ليتضحَ الفرقُ بينَ هذه وتلكَ ، فسوفَ لا تنقضي ساعةٌ واحدةٌ إلا وتكونُ هذه الزجاجةُ بينَ يدي جلالَتكم ، ولا أقصدُ من ذلكَ إلّا إثباتَ رأيي . »

قال السلطان :

« إنك تهزل ولا شك يا مونسها وزن ! »

فأجبت : « إنني لا أهزل يا مولاي ، وإنني لأقدم رأسي ثمنًا لهذا الرّهان . فلا تنقضي ساعةٌ حتى أرفعَ إلى جلالَتكم زُجاجةً من نبيذِ توكاي أستقدمها في التوّ من قصرِ الإمبراطوري في فينا . »

وافق السلطان على الرّهان ، فإذا لم يحضر النَّبِيدُ في الساعةِ الرَّابِعةِ تمامًا فإنني أقعدُ الرّهانَ ومن ثمّ أقعدُ رأسي ، وإن كان رأسُ صديقِ السلطان ! أما إذا كسبتُ الرّهانَ فإن خزائنَ السلطان تُفتَحُ لي لأختيرَ منها ما أشاء من ذهبٍ ولآلئٍ وأحجارٍ كريمةٍ ، أحملُ منها ما يستطيعُ أقوى الرجالِ حملَه على كتفيه .

عند ذلك طَلَبْتُ فلما وورقاً وجِبراً وكتبْتُ رسالةً إلى الإمبراطورة «ماريا تريزا» أقول فيها :

«... لقد أصبحتِ يا صاحبةَ الجلالةِ الوارثةَ الشرعيةَ لأبيك العظيم ، كما أصبحتِ وارثةَ نبِيذِ أبيكِ المَعتَقِ . فهل لي أن أرجوَ من جلالَتكِ أن تسميَ الحاملِ هذهِ الرسالةِ بزُجاجةٍ من نبِيذِ «توكاي» الذي كثيراً ما احتسيتُ منه في قصر أبيك العظيم ، وكلُّ ما أرجوه أن يكون من الصَّنَفِ المَعتَقِ ، وإنني يا صاحبةَ الجلالةِ ما زلتُ الخادمَ المخلصَ ...»

وعند ما انتهيتُ من كتابةِ الرسالةِ كانت الساعةُ الثالثةَ وخمسَ دقائقَ فسَلَّمْتُها إلى خادِمي «المُدَّاء» الذي سبقَ أن حدَّثتكم عنه ، فكَكْتُ الثِقَلَ المربوطَ حولَ قدميه حتَّى يَمُدُّوهُ بأقصى سُرعةٍ ، فانطلقَ إلى «ثِينا» سيراً على الأقدام .

طفقتُ في حضرةِ السلطانِ أَنتظرُ عودةَ الرِّسُولِ ، وبعدَ قليلٍ دَقَّت الساعةُ الثالثةَ والرَّبيعَ ، ثم الثالثةَ والنِّصْفَ ، ثم دَقَّت الرابعةَ إلا الرَّبيعَ ، ولم يظهر بعدُ أثرُ الرِّسُولِ ، عند ذلك بدأ يخامرُنِي الشَّكُّ وأخذتُ رعدةً تَمَلِّكُنِي لاسيَّما عند ما اقترَبَ السلطانُ من الجَرَسِ ليُرْسَلَ في طلبِ الجَلَادِ عند ذلك سألتُهُ أن أخرجَ إلى الحديقةِ لكي أَتَنَسَّمَ هواءَها العليلَ فخرجتُ وفي أثرِي أحدُ الحُرَّاسِ حتَّى لا أغيبَ عن عينه . فلما تَمَلَّكُنِي الضيقُ أرسلتُ في طلبِ خادِمي «مسترقِ السمع» ثم «الصيَّادِ» فأقبلا عليَّ وكانت الساعةُ إذ ذاك قد أشرفتُ على الرابعةِ .

فانبطح الأول على الأرض والحق أذنه ثم أجاب بأنه لا يسمع صوتاً لأقدام
« المذء » ولكنه يعتقد أنه نائم على الأرض على مسافة بعيدة من إسطنبول لأنه
قدميز شخير تمييزاً واضحاً. ثم وثب خادى الصياد على مرتفع من الأرض
وأخذ يُحْمِلِق في الهواء ثم أجاب :

« إننى أرى هذا الخنزير راقداً تحت شجرة إلى جوار مدينة « بلنراد »
والزجاجة إلى جانبه ؛ أريدُ يا سيدي أن أوقفه ؟

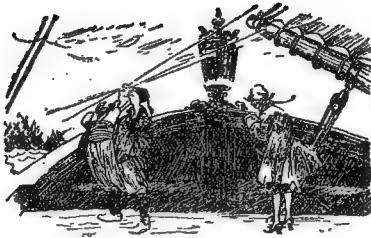
وما أن انتهى من سؤاله ودون أن ينتظر جوابي حتى رفع بُندُقيته وضوَّبها إلى
قمة الشجرة ثم أطلقها ، فكسرت عدة من الأغصان المورقة التي سقطت على
ذلك النائم ، وما كان منه إلا أن وثب على قدميه وقبض على الزجاجة وعلى رسالة
من الإمبراطورة « مارياتريزا » ، وما كانت الساعة الرابعة إلا أنصف دقيقة حتى كان
على أبواب القاعة السلطانية . فلما رأى السلطان ذلك تولاَه العجبُ وأقبل على
يضمئني إلى صدره ويقول : إنه ما كان يقصِدُ بي شراً . ثم إنه طلب خازن الأموال
السلطانية وقال له :

« إن الخدمات التي أداها مونشهاوزن إلى الدولة التركية لا تُقدَّر ولا يبررها
أحدٌ سواي ، لهذا فإننى أمرتُ بأن يُمنَحَ صديقي مونشهاوزن ، مكافأة على أعماله
المدينة من الذهب ومن اللآلئ ومن الأحجار الكريمة مما هو موجود في خزائني
بمقدار ما يمكنُ أشدَّ الرجالِ قُوَّة أن يحمله على كفتيه . »

فلما سمع خازنُ الأموال أمرَ السلطانَ انْحَنَى وتركَ الفرقةَ . وبينما كان خدسي
يجهزون سفينةً سريعةً لعمودتي إلى بلادى أرسلتُ إلى خادى « حامل الأقال »
وتبعنا خازنُ الأموال إلى الخزائن . فلما قُتِحت أبوابها أخذَ خادى يجمعُ ما فيها
من كنوز في كومةٍ واحدةٍ ثم حزمها بحبلٍ غليظٍ ورفقها إلى عاتقه . وقد حدثَ
هذا في سرعةِ البرق ، وما إن انتهى حتى كُنَّا في طريقنا نَهْرُولُ إلى الميناء . أمّا حارسُ
الخزائن ، فلما رأى ذلك أسرعَ إلى السلطانِ وهو يصيحُ وَيُؤْلُولُ قائلاً : إن جميعَ
ما في خزائنِ القصرِ قد حملها خادى على كتفيه .

وعندما سمعَ السلطانُ ذلك وأنَّ الفكاهةَ قد جاوزتْ حدَّها تملكَّه الغضبُ ،
إذ ما كان يظنُّ أن وعدَه يُوقَعُ في هذه النتيجةِ غيرِ المتظرةِ ، لهذا أمرَ
أميرَ البحرِ بأن يُجهزَ الأسطولَ بأسره ليطاردَ سفينتنا . وفي خلال تلك اللَّيلةِ
كُنَّا قد مررنا من الدردنيلِ وقطعنا مرحلةً كبيرةً في بحرِ « إيجة » ؛ وعند ما أصبحَ
الصباحُ كُنَّا قد وصلنا ما بين جزيرةِ كريت والطرفِ الجنوبيِّ لشبه جزيرةِ المورةِ ،
ومن ثمَّ دخلنا البحرَ الأبيضَ نفسه . عند ذلك رأيتُ عددًا لا يُحصى من السفنِ
التركيةِ التي تبعتنا فهيَّجَ هذا المنظرُ في نفسي الأشجانَ .

في هذه اللحظةِ تقدَّم إلى خادى « مُسيِّرُ الرياح » وهمسَ في أذني :
« لا تبتسئ يا صاحبَ السعادةِ فإني إلَّا لحظةً حتى تعودَ هذه القافَّةُ على
أعقابها كما جاءتْ ، وما إن انتهى من كلامه حتى أسرعَ إلى مؤخرِ السفينةِ ووقفَ



إلى جانب الدفة بحيث كانت فتحة أُنْفِه اليمنى مُقابلةً للمراكبِ التركية وفتحة
أُنْفِه اليسرى مُقابلة السّفينة التي زكّبوها . عند ذلك هبّت رِيحٌ عاصفةٌ اكْتَسَحَتْ
السّفنَ التي كانت تلاحِقُنَا وعبثت بِصَواريها وجبالها وأشرعتها ودَفَعَتْهَا دَفْعاً
حَتَّى تَفَرَّقَ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ ، يَظُنُّ أَنَّهَا كَانَتْ سَفِينَتُنَا - بِمَا تَحْمِلُ مِنْ كُنُوزٍ لَاحِضَةٍ
لَهَا - فِي طَرَفِهَا إِلَى إِيطَالِيَا ، وَلَمْ تَمُضْ إِلَّا بَضْعُ سَاعَاتٍ حَتَّى أَلْقَيْنَا مَرَاثِدَنَا عَلَى
شَاطِئِهَا .

نعم ما أصدق المثل الذي يقول : إِنْ لِلْمَالِ الْقِي تَأْتِي بِهِ الرِّيحُ تُبْعَثُهُ الزَّوَابِعُ !
وهذا ما حدث بالفعل ، وسأقصّ عليكم خبره في المَرَّةِ القادمة .

الليلة الحادية عشرة

في مساء اليوم الذي عزم فيه البارون فون مونشهاوزن على السفر إلى سويسرا؛ فتح صديقه حارسُ الأحراش قَمَّةً لأوَّل مرَّة ، وكان هذا الرجلُ ممن لم ينقطع ليلةً واحدةً عن مجلس البارون. ولم تَقُتْ شاردةٌ من مُغامرات مونشهاوزن السابقة. نظر حارسُ الأحراش إلى صديقه البارون وسأله عما إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي يزورُ فيها سويسرا .
عند ذلك أجاب مونشهاوزن :

« إني أعرفُ سويسرا معرفةً وثيقةً ، بل أعرفُ كلَّ مُرتفعٍ وكلَّ وادٍ فيها ، وبما أنني سوفَ لا أجمعُ بكم إلا بعد وقتٍ طويلٍ ، لهذا رأيتُ أن أرويَ لكم حادثةً واحدةً جرت لي إبَّان زيارتي الأولى لهذه البلادِ الجميلة ، وإن كانت تافهةً إلا أنَّها طريفةٌ بمض الشئ . »

...

حدث عند ما وصلتُ هناك مع جماعةٍ من السائحين الأجانب أن عقدنا العزمَ على أن تنسلقَ قَمَّةَ جبل « يُونج فَرَاو » الأثمُّ الذي لم يكن قد ارتقاه حتى ذلك الحين أحدٌ من هواةِ الرياضةِ الجبليةِ . وكانت عِدَّتُنا أحدَ عشرَ رجلاً ، وكان دليلُنا يُدعى « بَسْتِيَان إرنمان » . أما بطلُ هذه الحكايةِ فابنه الذي كان يبلغُ من العمرِ ست

سنوات ، لهذا سأقصر حديثي هذه الليلة عليه .

من عادة صيادي « الشموه » في سويسرا أنهم يصبحون صنادقهم معهم إلى الجبال إذا ما استووا على سيقانهم ، فبذلك يتعودون غاطر الجبال وفنون التسلق منذ نعومة أظفارهم . ومن المشاهد المألوفة في سويسرا أن ترى طفلاً في الثانية أو الثالثة من عمره يلبس حذاء الثلوج مُمسكاً بمصا جبليّة وهو على رأس جماعة من هواة التسلق من زائري سويسرا .

كان « باستيل » الصّغير مُنذولاً ديه طفلاً مرهقاً ضعيفاً ، لهذا كان لأول مرة يشترك في رحلة من هذه الرحلات الجبلية ، فكان لهذا تُموّزه الخبرة ، فجر ذلك عليه ضرراً بليغاً . لم تَمضِ نصف ساعة من قيامنا حتى رأيناه يتخلف عن مُتابعة السّير ، لهذا اتفقنا فيما بيننا على أن يقوم كل واحد منا بحمل هذا الصّبيّ مرحلةً وما أسرع أن اختلف رفاقنا فيما بينهم عنّ يكون البادي بحمل هذا الصّغير ، ولكنّ أفضّ النزاع بينهم اقرحت عليهم أن أقوم بهذه المُهمّة وحدي فحملتُ الصّغير على كتفي وجعلته يُبْثُّ قدميه في جيبيّ معطني ، ثمّ حاولنا التسلق .

سارت الأمور على أحسن حال وقد أبدى الصّبيّ ارتياحاً واغتيالاً لهذا الأبلوب الطّريف للرّكوب ، وأخذتُ في بادي الأمر أحسّ بالدفء والحرارة ولكنّ ما لبثتُ طويلاً حتى شعرتُ بالمرق يتصبّب من رأسي ويفيض على جميع جسّمي ، وكلّما ارتقينا مرحلةً اشتدّ البرد وأحسن « باستيل » الصّغير

بالقشعريرة التي كانت تنسرب من جسمه إلى كتفيّ وصدرى . ولا أريد أن
أحدثكم عما رأيْتُ وشاهدْتُ لأنّ لذلك موضِعُهُ ، ولكنّ يكفى أن أقولَ إنَّ
رحلتنا استمرت على هذا النحْوِ يَوْمَيْنِ وَلَيْلَتَيْنِ حَتَّى وصلنا إلى خطِّ الثلجِ
الدائمِ ، فكُنَّا ننحِتُ الدرجاتِ في طريقنا نَحْتًا حَتَّى وصلنا في النهاية إلى قِمَّةِ
الجبلِ ، وهناك أشرَفنا على منظرٍ ساحرٍ لا يصفه اللسانُ .

أما رفيق الصَّغيرُ فكاد يتجمّد ، وقد لفَّ ساقيه حولَ عُتْقِي حَتَّى إننا لم نستطع
أن نزعهما من مكانهما إلّا بصعوبة شديدة وباستخدام آليّة حادّة . فلما نزلَ إلى
الأرض لم يذَرِ كيف يستعملُ أقدامَهُ فكانت سيقانه كالشلوالة ولا عجب ، ثم أخذ
يرتجُ رَجَّةً وبسرّة ، وما كانت إلّا لحظةٌ حتى رأيناهُ يزلِقُ ثمَّ يهوى فجأةً وبسرعة
الريّح إلى قاع الوادى . وفي تلك اللحظة انبمَتْ صرخةٌ فزعَ من ثلاث عشرة حنجرةً !
وكان إذا ما تَدَخَّرَجَ مسافةً رأينا طبقةً من الثلجِ تُغطّي جسمَهُ وما هي
إلّا لحظاتٌ حتى استحالَ إلى كُرّةٍ هائلةٍ من الثلجِ راحت تهوى إلى بطنِ الوادى
السحيق ، وبعدَ قليلٍ لم نستطع أن تبيّنها إلّا باستخدام المنظار المُقَرَّبِ ، ولم يمضِ
وقتٌ طويلٌ حتى اختفت تماماً عن أنظارنا .

لقد عَقَدْتُ هذه الفاجعةُ كلَّ لسانٍ فوقنا كالماخوذِين من الدهشة ، وفي
لحظةٍ واحدةٍ انطلقَ لسانى كما انطلقَ لسانُ الأب «بَسْتِيان» وصحنا سوياً «فلننبّههُ»
ولم يُجِدْ اعتراضُ رفائنا قَبِيلاً إذ لم ندعِ الخوفَ من نزولِ هذه الهوّةِ (التي يبلغُ عمقُها

ثلاثة عشر ألف قدم) بمنعنا من أداء الواجب، فربطنا أنفسنا بجبل واحد وبدانا السير إلى الأمام (وأقصدُ إلى أسفل) ولا أريدُ أن أصِفَ ما لا يقبَلُ من مشقة أثناء النزول، ويكفي أن أقول إنها كانت مجازفة خطيرة، يند أنها انتهت بسلام والحمد لله عند ما وصلنا بعد ساعة إلى بطن الوادي لم نفقد عُضْوًا.

هناك شاهدنا تلك الكرة الثلجية مُعلَّقة على أغصان شجرة ناشفة، ومن حسن الحظ أن (بستيان) كان مازال يحملُ فأسه التي كان ينحِتُ بها الثلج أثناء صعودنا، وبعد جهد ومشقة تمكنا من قطع جذع الشجرة وبذلك هَوَتْ الكرة الثلجية إلى الأرض. بعد هذا بدأنا مُهمَّة شاقة قضيضنا بضع ساعاتٍ ونحن نرفع طبقات الثلج طبقةً طبقةً كما تُنظفُ قشور البصل، حتى سمعنا صوتًا ضعيفًا ينبعث من الصبي الذي أخرجناه من محبسه وهو ما زال على قيد الحياة. ومن العجيب أنه لم يُعصب بإصابعه، ولكنَّهُ لم يكُدْ يخرجُ إلى الهواء من تحبسه حتى كادَ يتجمد من البرد، فحملناه إلى يثته حيث قضى أربعة عشر يومًا وهو قعيد الفرائس، وكان يُقطرُ في فمه كل ساعتين شيء من لبن الماعز الدافئ حتى مادَّت إليه الحياة. وإنَّ الفرحَ ليغمُرُ صَدْرِي عند ما أذكرُ إنَّ هذا الصبي قد أصبحَ اليومَ رجلًا بالغًا، وأنتى سوفَ أضته إلى ضدرى عند ما ألقاه قريبًا.

والآن أستودِعُكمُ الله بأصدقائي الأعزاء حتى أعود إليكم من سويسرا الجميلة، وإني أدعو الله أن يفيض عليكم من السعادة حتى أرجع إليكم في القريب العاجل.

الليلة الثانية عشرة

رويت لكم في الليلة الأخيرة، كيف هربتُ إلى إيطاليا، بعد أن حملتُ معي جميع الأموال والجواهر التي وجدتها في خزان السُلطان.

فلما وصلتُ إلى «برنديزي»، كنتُ ولا شك أعتبرُ نفسي أغنى رجل في أوروبا، ولكن سُرعان ما أحاطت بي أسرابُ الشحاذين والمُنسولين، وأحاط بي النصابون والنجالون والنشالون، ولم تنقُضْ أسابيع معدوداتِ حتى كان الجانب الأوفر من هذا الكثر قد تبدد، واتضح الأمرُ بأن سطت علينا عصابةٌ من قطاع الطريق قاتت على البقية الباقية منه، فلم تترك لنا - كما يقول المثل - إلا القميص الذي يستر أجسامنا.

ومن حُسن الحظ أنني كنتُ أعملُ في جيبٍ داخلي يلتصق بالصدر حَفنةً من الجواهر والآلِيَّة التي تمكّنتُ من أن أسترها عن أعين أولئك اللصوص، فبعتها إلى تاجر من تجار الجواهر من أهل روما بمبلغ مائة ألف جنيه ذهبي، ولم يكن هذا المبلغ بالثروة الهائلة ومع ذلك فقد وزعتُ أكثره بين خدشي الخمسة، وهم كما تعرفون: الصياد، ومُسترق السمع، ومسيّر الرياح، والعذاء، وحامل الأثقال، الذين رأيتُ أن أستغني عن خدماتهم إذ ذاك.

لم أستبقُ معي إلا بعض المال الذي يكفيني للسفر لزيارة صديقي القديم الجنرال «إليوت» في جبل طارق.

وكان من بين ما لم نمتدّ إليه يدُ قطاعِ الطريقِ مقلعٌ شبيهٌ بذلك المقلعِ
استُخدمَ في يومٍ من الأيامِ الملكُ داودُ في حربِهِ مع الماردِ «جوريات». وهو
المقلعُ نفسه الذي كان يحمله والذي في يومٍ من الأيامِ أثناءَ زيارتهِ لـ«انجلترا»
وكانت فائدتهُ له عظيمةً كما سأتين لكم .

كان والذي يسيرُ على الشاطئِ عندميناه «دوفر» ، وبينما كان غارقاً في تأملاته
يُفكرُ في رحلتهِ الفجائيةِ إلى فرنسا ويستعرضُ السفنَ الشراعيةَ التي أمامه
ليختيرَ منها واحدةً ، إذا بفرسٍ مائيةٍ تبرزُ فجأةً من البحرِ وتطلقُ نحوهَ وقد أحمأها
الغضبُ !



بحثَ أبى في جيوبه عن سلاحٍ يدافعُ به عن نفسه فلم يجدْ إلا ذلك المقلعَ ،
فما كان منه إلا أن التقطَ حصانينِ ورُمى بهما القرمِ المائيةَ فأصابَتْ كلُّ حصاةٍ
عينًا من عينيها ، وعلى ذلك أُصيبَت القرمُ بالعمى وأصبحتُ مستأنسةً مِلْسَةً

القياد ، فجرّها أبي وراية إلى دكانِ صانع السروج حيث اشترى لها سرجاً ثمّ حاد إلى البحر وخاض بها الماء فحملته على ظهرها إلى ميناء كاليه على الشاطئ الآخر من القنال الإنجليزي ، ولم تستغرق رحلته أكثر من ساعة وعشر دقائق .

كانت هذه الفرسُ البحريةُ حيواناً رائعَ التكوين ذات عُنُقٍ ممدّ وعُرفٍ طويلٍ جميل ، ولم تقطع البحرَ سياحةً بل كانت تمُدُّ على قدميها بسرعةٍ لا مثيل لها فوق قاع البحر نفسه ، وكانت تسبح وحوّلها الملايين من الأسماك البديعة الرائعة . ولما وصلَ أبي إلى « كاليه » باع هذه الأعجوبة إلى صاحب فندق « الأزهار الثلاثة » بمبلغ زهيدٍ قدره تسعمائة دوكة ، أما صاحبُ الفندق فعرّضَ الفرسَ للفرجة فجمعَ من ذلك مالاً كبيراً أرزى على ربحه من فئدته . ولما هبطَ أبي باريسَ بحثَ عن مُصوِّرٍ ماهٍ من مُصوِّري القصر الملكي وطلبَ منه أن يرسمَ له صورةً كبرى وهو مُتمتطي صهوة هذه الفرس . وأكبرَ ظنّي أنكم شاهدتم هذه الصورة الرائعة ، التي أحفظ بها إلى اليوم في غرفة نوّمي .

...

أعودُ إلى حكايتي الأولى ، فقد حدثَ في جبل طارق أن خرجتُ مع صديق « إليوت » إلى ساحل البحر لترى بأعيننا طبيعة الاستحكامات ووسائل الدفاع التي أقامها الأعداء . وكنتُ أجملُ معي منظاراً مقرباً كنتُ اشتريتهُ من قبطان إحدى

السفن في روما يبلغ زهيد من المال، وكان منظراً دقيقاً له الفضل فيما حدث لي
إبان هذه الرحلة.

رأيت في تلك اللحظة أن المحاصرين لنا من الإسبان صوبوا إلى مكاننا
مدفعاً قُبلتته زنة ستة وثلاثين رطلاً، فما كان مني إلا أن وثبتُ إلى أقرب
مدفع من زنة ثمانية وأربعين رطلاً وصوبته في التوُّ إلى مكان مدفع الأعداء،
فما أن أمر القائد الإسباني بإطلاق النار حتى كنتُ أُصدِرُ الأمر نفسه إلى رجالنا،
فانطلقت القذيفتان في وقت واحد والتقتا في مُتصَفِ المسافة بيننا تقريباً في
الفضاء، فصدمت قُبلتنا ذات الثمانية والأربعين رطلاً قُبلته العدو ذات الستة
والثلاثين رطلاً فدفعتها أمامها دفماً حتى سقطت على رأس المدفعية الذي أطلقها،
ثم اندفعت خلال أشعة السفن الواقفة في الميناء، ومن ثم انطلقت فوق البحر
صوب شاطئ إفريقيا. أما قُبلتنا فبعد أن دفعت قُبلته العدو أمامها اندفعت
صوب مدفع الأعداء فصلته أمامها وألقت به في حوض من أخواض الملاحه،
ثم اخترقت جانب السفينة، وحدث من ذلك أن اندفع الماء إلى داخلها فانقلبت بما
تحملة فوق ظهرها، وما أسرع أن فاصت في الماء، فكانت جملة من غرق في
هذا الحادث ألف ملاح إسباني وبضع مئات من الجنود، فلما رأى الجنرال إليوت
ما صنعت عرض على وظيفة عسكرية إلا أنني رفضت عرضة شاكرًا، وعندما
صدرت الجريدة العسكرية وجدت كلمة شكر رقيقة موجهة إلى شخصي.

لا أظنُّ أحدًا يعرفُ اسمَ الرجلِ الذي يعودُ إليه الفضلُ في إغناذِ جبلِ طارقِ
من الاسبان في يومٍ من الأيام ؟

فإذا سمعتم ما سوف أقصُّه عليكم فإنني أتركُ للبائِستِكم استنتاجَ ذلك .
في ذات ليلةٍ حالكةٍ الظلام خرجتُ متأنِّصًا إلى معسكرِ الأعداء وقد
أستخفيتُ في زى قسيسٍ كاثوليكيٍّ حتَّى اقتربتُ من خيمة الكونت «أرثوا»
وكان إذ ذاك يتصدَّرُ مجلسًا عسكريًّا من كبارِ رجالِ الجيشِ ومُتَباطِلِهِ للشاورَةِ
في خُطة الهجومِ على الحصنِ ، فصرَّخوا لذلكِ موعِدًا في صَباحِ الغدِ الباكرِ .
قرَّ قرارهم على أنه إذا ما قُتِّح الصَّباحُ قُتِّحَ جميعُ مدافعِهِم وعدَّتْها ثلاثمائةٍ مِدْفَعٍ
أفواها في لَحْظَةٍ واحدةٍ توفِّظ بدويَّها المائلِ المحاصرينَ في الحصنِ وتصبُّ
عليهم نارها الحاميةَ .

وهكذا سمعتُ ما دارَ في مُعسكرِ العدوِّ بأُذُنِي ولم تَقُتْ شاردةٌ منه ، فلما
انتهى المجلسُ وتفرَّقَ أعضاؤه وشملَ الشُّكُونُ المكانَ خرجتُ من حُجْبِي
ورُحْتُ أجوُسُ خِلالِ خيامِ المُعسكرِ وأنا أفكرُ في وسيلةٍ لأُنْفِضِي بها على خُطَّةِ
الأعداءِ . ويحسُنُ بي أن أنوِّهَ كيف أن جميعَ رجالِ المُعسكرِ استغرقوا في سُبَاتٍ
عميقٍ ، بل إن الحراسَ تركوا أماكنَهُم واستنَّسَلوا للنَّوْمِ رغبةً منهم في استجماعِ
نشاطِهِم لهجومِ الغدِ الكبيرِ .

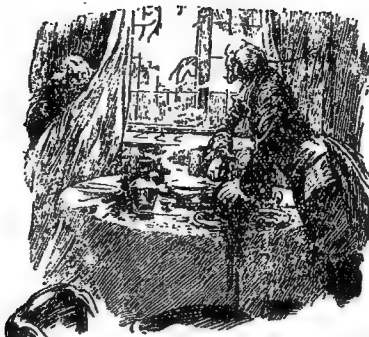
فلما دَقَّتِ الساعةُ الواحدةَ من الصَّباحِ وكنتُ قد انتهيتُ إلى خُطَّةِ

مُعِينَةٍ، تَسَرَّبَتْ فِي هَدْوِهِ إِلَى إِحْدَى بَطَارِيَاتِ الْعَدُوِّ وَتَحَيَّرَتْ أَكْبَرَ مَدَافِعِهَا وَأَقْلَبَهَا
فَرَفَعَتْهُ مِنْ مَكَانِهِ وَقَذَفَتْ بِهِ فِي الْبَحْرِ فَسَقَطَ عَلَى بُعْدِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الشَّاطِئِ .
وَإِذَا كَانَ النِّجَاحُ حَلِيقٍ فِي التَّخْلُصِ مِنْ هَذَا الْمِدْفَعِ الثَّقِيلِ فَلَاشِكَّ أَنَّ مُهِمَّتِي
أَصْبَحَتْ أَهْوَى عِنْدَ مَا أَخَذْتُ أَتَخَلَّصُ مِنْ مَدَافِعِ الْعَدُوِّ الْأُخْرَى وَاحِدًا وَاحِدًا ،
فَكَانَتْ مُجْلَةً مَا أَلْقَيْتُ مِنْهَا فِي الْمَاءِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتَّةَ وَعَشْرِينَ مِدْفَعًا حَتَّى أَضْنَانِي
الْجَهْدُ بِمَهْذَا الْعَمَلِ الشَّاقِّ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ أَتَخَذَّلْ عَنْ جَمْعِ مَرْكَبَاتِ الْمِيرَةِ وَالذَّخِيرَةِ
وغيرها مِنْ مُعَدَّاتِ الْعَدُوِّ فِي كُومَةٍ وَاحِدَةٍ وَأَشْعَلْتُ فِيهَا النَّارَ .

وَمَا أَنْ دَوَى انفجار البارود فِي الْفَضَاءِ حَتَّى عَمَّ الدَّعْرُ الْأَعْدَاءَ ، فَأَسْرَعَ
الْكُونَتِ «أَرْتَوَا» إِلَى الْإِنْسِحَابِ بِحُطًى سَرِيعَةٍ وَتَبِعَهُ جَيْشُهُ ، وَلَمْ يَسْتَقِرَّ لَهُمْ قَرَارٌ
حَتَّى وَصَلُوا إِلَى بَارِيسَ بَعْدَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ يَوْمًا . وَكَانَ مِنْ جَرَاءِ الْفَزَعِ الَّذِي أَصَابَهُمْ
عِنْدَ جُدُوثِ ذَلِكَ الْإِنْفِجَارِ أَنْ اضْطَرَبَتْ بَطُونُهُمْ وَأَصَابَتْهُمْ وَعْكَةٌ شَدِيدَةٌ اسْتَمَرَّتْ
ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ كَامِلَةٍ لَمْ يَتَذَوَّقُوا خِلَالَهَا طَعَامًا ، بَلْ كَانُوا يَمِيشُونَ عَلَى الْمَوَاءِ .

...

حَدَّثَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَسَابِيعٍ أَوْ ثَمَانِيَةِ أَنْ كُنْتُ جَالِسًا ذَاتَ صَبَاحٍ حَوْلَ مَائِدَةٍ
الْفُطُورِ مَعَ الْجُنَرَالِ «إِلْيُوت» فَإِذَا بِقُبْلَةٍ تَخْرُقُ الثَّرْفَةَ وَتَسْقُطُ يَتَنَا عَلَى الْمَائِدَةِ
فَأَسْرَعْتُ وَنَزَعْتُ الْكَبْسُولَةَ مِنْهَا ، وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَظْلُ مِنْ النَّافِذَةِ عَلَى مُعَسْكَرِ



قريب للأعداء وجدتُ جماعاً مُحْتَشِداً، فلما دَقَقْتُ النظرَ بِالنِّظَارِ المُقَرَّبِ رَأَيْتُ
مَشْنَقَةً مَنْصُوبَةً وَمُضَابِطَيْنِ إِنْجِلِيزِيَيْنِ كَانَ قَدْ قُبِضَ عَلَيْهِمَا فِي اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ وَحُكِمَ
عَلَيْهِمَا بِالْمَوْتِ شَتَقاً لِاتِّهَامِهِمَا بِالْجَاسُوسِيَّةِ .

فَرَرْتُ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئاً وَأَنْ أَضَعَّ حَدّاً لِهَذَا الْمَنْظَرِ ، وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَسِيرِ أَنْ
أَتِيَ الْقَنْبَلَةَ يَدِي لِيُبْعِدَ الْمَسَافَةَ بَيْنَنَا التَّجَاتُ إِلَى اسْتِخْدَامِ الْمَقْلَاعِ الَّتِي سَبَقَ
أَنْ حَدَّثْتُكُمْ عَنْهُ ، وَبَعْدَ أَنْ جَهَّزْتُ الْقَنْبَلَةَ بِكَبَسُولَةٍ جَدِيدَةٍ قَذَفْتُ بِهَا عَلَى ذَلِكَ
الْمَكَانِ الَّتِي نُصِيتَ عَلَيْهِ الْمَشْنَقَةُ ، فَسَقَطَتْ فِي وَسْطِهِ وَانْفَجَرَتْ فِي الْحَالِ فَأَصَابَتْ
جَمِيعَ الْوَاقِفِينَ وَقَضَتْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَنْجُ مِنْ شَرِّهَا إِلَّا ذَانِكَ الْإِنْجِلِيزِيَّانِ إِذْ كَانَا
مُتَمَلِّقَيْنِ فِي الْمَوَاءِ ، كَمَا نَجَا الْجَلَّادُ الَّتِي كَانَ واقفاً عَلَى رَأْسِ السُّلْمِ . ثُمَّ انْتَثَرَتْ شَطَابَا
الْقَنْبَلَةِ فَأَصَابَتْ أَهْمَدَةَ الْمَشْنَقَةِ فَهَدَمَتْهَا وَأَصَابَتْ الْجَلَّادَ هَذِهِ الْمَرَّةَ فَاتَ . أَمَّا

الضابطان فوقما على الأرض بين الموت والحياة.

وبعد قليل عاد أحدهما إلى صوابه فحلّ الحبل القنبّ الغليظ من حول عنقه كما فعل ذلك زميله. فلما وقفا على قدميهما وجدا كلّ من حولهما غداً فارق الحياة ولكن لم يطل السكون حتى مزقته أصواتٌ غاضبةٌ اندفع أصحابها على عجلٍ من المعسكر القريب. وكان من الطبيعي ألا ينتظر الضابطان تكرار المأساة بل أطلقا السيّقان هرباً إلى الشاطئ واستوليا على ظهر قاربٍ مربوطٍ بعد أن قيّدا ملاحين وجداهما نائمين في جوفه وسارا به إلى إحدى سفننا الراسية.

كانت هذه المرّة الوحيدة التي استخدمتُ فيها ذلك القلاع في شأن من شؤوني، ولما كان ضعيفاً لا يحتمل هذه المحاولات العنيفة فقد تمزق أكثره بفعل تلك القنبلة ولم يبق منه إلا مقيضه لهذا احتفظتُ به بين مخلفات الاسرة التاريخية، التي إن تفضلتم بزيارة منزلي فإنني سأكون جديّ مُتعبطٍ بإطلاعكم على كثير من طرائقها.

...

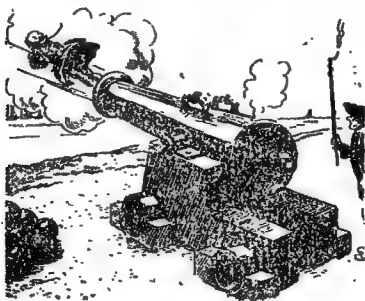
نزلتُ من جبل طارق بعد ذلك بقليل وسافرتُ إلى إنجلترا وهناك جرى لي حادثٌ اعتبره أعجب ما وقع لي في حياتي.

كان ذلك في يومٍ، يونه على ما ذكر، وكنتُ قد سافرت إلى ميناء «واينج» لأشحن بضاعةً بطريق البحر إلى «ميجرج»، وبينما كنتُ سائراً على ساحل البحر وكانت الشمسُ تُرسل أشعتها الذهبية على الأرض وكان التّسبُّ قد أخذ مني مأخذهُ،

بَحِثُ عَنْ مَكَانٍ ظَلِيلٍ لِأَقِيلَ فِيهِ فَلَمْ أَجِدْ أَرْوَحَ مِنْ قُوَّةِ مَدْفَعٍ ضَخْمٍ كَانَ مَنْصُوبًا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ فَتَسَرَّيْتُ إِلَيْهِ وَتَمَدَّدْتُ فِيهِ .

كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدَ مِيلَادِ مَلِكِ الْأَنْجَلِيزِ ، وَكَانَتْ جَمِيعُ الْمَدَافِعِ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ قَدْ حُشِيَتْ بِالْبَارُودِ اسْتِعْدَادًا لِإِطْلَاقِهَا إِذَا مَادَقَتِ السَّاعَةُ الْأُولَى بِعَدِ الظُّهْرِ وَكُنْتُ جَاهِلًا أَمْرَ هَذَا كُلِّهِ ، وَسُرْعَانِ مَا غَلَبَنِي الشَّعْسُ فَاسْتَفْرَقْتُ فِي نَوْمٍ هَادٍ مُنْخَفِيًا عَنِ الْأَنْظَارِ فِي قُوَّةِ ذَلِكَ الْمَدْفَعِ .

وَعِنْدَ مَا دَقَّتِ السَّاعَةُ الْأُولَى عَامًّا جَاءَ الْمَدْفَعِيُّ وَأَشْعَلَ الْبَارُودَ فَانْفَجَرَ وَحَلَّ صَدِيقُكُمْ « مُونْشَاهُوزِنْ » فِي الْفَضَاءِ يَتَقَدَّمُهُ رَأْسُهُ فَشَقَّ الْفَضَاءَ عَلَى هَذَا النُّحُوِّ فَوْقَ مِيَاهِ نَهْرِ التَّيْمِزِ الَّذِي كَانَ عَرْضُهُ سِتَّةَ أَصْعَافٍ عَرْضَ نَهْرِ الْإِلْبِ عِنْدَ هَمْبُرْجِ ثُمَّ سَقَطَ صَدِيقُكُمْ وَانْفَرَسَتْ رَأْسُهُ فِي جَوْفِ كَوْمَةٍ مِنَ التَّنِّينِ .



وكان الدهول الذي أصابني جعلني أتابع غفوتي وأستمر في نومي الذي كنت مستغرقاً فيه منذ أن اختفيت في قومة المدفع ، ولولا أن أحد الفلاحين جاء بعد ذلك بثلاثة أشهر ليحمل التبن إلى السوق لكان من المحتمل جداً أن أستمروا في نومي إلى ما بعد هذا التاريخ .

... لاحظت في بعض الأحيان أن بعض الجالسين إذا ما استمع إلى رواية من هذه الروايات يمتريه الشك في حقيقتها ويبدو ذلك على عيائه ، ولكي أثبت أن مارويته حقيقة لا يمتورها الشك ، أذكر لكم أن شجرة من شجر البرقوق كانت قائمة في جوار كومة التبن التي كنت نائماً في جوفها ، ففي شهر يونيو كانت الشجرة مزهرة ليس إلا ، فلما استيقظت رأيت أغصانها وقدمالت بأشهى ثمر البرقوق وأطيبه حتى أنني لم أعمل بل قطفت منه وأكلت بشهية عجيبة .

وقد كانت دهشة أصدقائي في لندن عظيمة لاختفائي عنهم ثلاثة أشهر كاملة بحثوا خلالها عني في كل مكان عبثاً ، حتى عُدت إليهم في يوم من أيام سبتمبر الباردة في لباس من ملابس الصيف . ويمكنكم أن تتصوروا يا أصدقائي مبلغ

دهشتهم !

الليلة الثالثة عشرة

لا أذكرى يا أصدقائى ويا رفاقى هل سمعتم بالرحلة العلمية التى قام بها الكابتن «فيس» الذى يدعونه الآن اللورد ميلجرىف - وهى الرحلة التى جاس فيها خلال البحر المتجمد الشمالى ؟ فى هذه الرحلة رافقت الكابتن لا كضابط بل كصديق، وبعد أن خلفنا جزيرة «شيتز برجن» وراءنا قضينا أربعة عشر يوماً لا نرى فيها إلا الماء والهواء وكانت تترامى لنا من بعيد جبال الثلج العائمة التى كان ارتفاعها يبلغ ثلاثة أضعاف أعلى سارية فى السفينة .

من عادتى إذا كنت فى رحلة من الرحلات أن أدقق النظر حوالى لأتعرّف طبيعة المكان وما قد يحويه من غريب أو طريف . فرفعت منظارى المقرب وأخذت أرقب المكان الذى كنّا فيه فرأيت على أقرب جبل ثلجى - وكان يبعد عنا نصف ميل - ديين قطبيين يتعاركان على ما يظهر، فأسرعت وحملت بُندقيتى وسرت إلى حيث ذلك المرتفع وكلما اقتربت من قمته تهرت فى السير من الإعياء والخوف من المخاطر التى قد تصادفتى ، وقد كاد يحدث ذلك بالفعل عند ما حاولت أن أعبر هوة سحيقة . لم أيسر طويلاً حتى اقتربت من مكان الدئين ولشد ما كان عجبى عند ما وجدتهما يلعبان ولا يتعاركان .

وعند ما دققت النظرَ فيهما وجدتُ أنَّ الواحدَ منهما في حَجْمِ الثَّوَرِ
الكبيرِ على الأقلِّ ، ثم حَسَبْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي ثَمَنَ فَرَاثِمَا الْفَاخِرِ ، فَأَنْزَلْتُ
بُنْدُقِيَّيْ وَمَا كِدْتُ أَفْلُحُ حَتَّى انْزَلْتُ قَدَمِي الْيُمْنَى فَوْقْتُ عَلَى الْأَرْضِ وَكَانَ
مِنْ شِدَّةِ الصَّدْمَةِ أَنْ فَقَدْتُ شُعُورِي وَأَصْبَحْتُ بِإِغْوَاءِ شَدِيدٍ ، وَلَمَّا فَتَحْتُ عَيْنِي
- وَلَمَّا ذَلِكَ بَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ - وَجَدْتُ نَفْسِي فِي مَوْقِفٍ لَا اِغْبَاطُ عَلَيْهِ ، رَأَيْتُ
أَحَدَ الدَّبَّائِيْنِ وَقَدْ انْحَنَى عَلَى وَجْهٍ لَوْجَهْ بَلْ إِنَّهُ التَّهَمُّ الْحَزَامُ الْجِلْدِيُّ الَّذِي أَرَبَطَ بِهِ
سِرْوَالِي . يَا لَهُ مِنْ مَوْقِفٍ هَائِلٍ ! لَقَدْ كَانَ صَدْرِي تَحْتَ بَطْنِهِ ، أَنَا سَيْقَانِي فَكَانَتْ
طَلِيقَةً . لَسْتُ أَذْهَبُ حَقًّا كَيْفَ جَرَّنِي الدَّبُّ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ ؟ وَكُلُّ مَا فَكَّرْتُ
فِيهِ هُوَ أَنَّ أَخْرَجْتُ سِكِّينِي - هَذِهِ السَّكِّينِ الَّتِي تَرَوْنَهَا الْآنَ بِأَعْيُنِكُمْ -
وَقَبَضْتُ عَلَى رِجْلِ الدَّبِّ الْخَلْفِيَّةِ الْيُسْرَى وَقَطَعْتُ ثَلَاثَةَ أَصَابِعٍ مِنْ قَدَمِهِ !

وَمَا قَدَّرْتُهُ حَصَلَ بِالْفِعْلِ ، فَإِنَّ الدَّبَّ أَخَذَ يَزَعِقُ وَيَعْوِي مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ
فَرَكِبْنِي أَنْزَحَ حُمْرٌ مِنْ مَكَانِي حَتَّى تَمَكَّنْتُ وَالتَّمَطُّتُ بُنْدُقِيَّيْ الَّتِي كَانَتْ مُلْقَاةً قَرِيبًا
مَنِّي وَأَطْلَقْتُ مِنْهَا رَصَامَتَيْنِ فِي صَمِيمِ قَلْبِهِ وَمَا هِيَ إِلَّا لِحْظَةٌ حَتَّى ارْتَمَى عَلَى الْأَرْضِ
- أَقْصَدُ عَلَى التَّلَجِّ - فَاقْدَ الْحَيَاةِ ، نَعَمْ لَقَدْ تَمَكَّنْتُ مِنْ قَتْلِ أَحَدِ هَذِهِ الْوُحُوشِ
الضَّارِيَةِ الْفَتَّاكَةِ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الطَّلَقَةُ شُرْمَانٌ مَا جَمَعَتْ عَلَى الْآلَافِ مِنَ الدَّبَّائِيَّةِ الَّتِي
كَانَتْ نَائِمَةً فَاسْتَيْقَظَتْ فَأَحَاطَتْ بِي فِي شَيْءٍ دَائِرَةٍ نِصْفُ قَطَرِهَا نِصْفُ مِيلٍ !
مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَحَدَبٍ ، أَقْبَلَتْ نَحْوِي هَذِهِ الْحَيَوَانَاتُ

الفاتكة. ليس هنالك وقتٌ ليضيعَ سُدَيَّ لا بل إن حياتي نفسها قد ضاعت إذ ليس لدي وسيلةٌ للخلاص .

والآن ماذا أنا صانعٌ ؟

فعلتُ ما يفعل الصيادُ المتمرّنُ عند سَلْخِ الأرنبِ ، إذ عمدتُ إلى الدُبِّ المقتولِ فسَلَخْتُ جلده ثم دخلتُ فيه واختفيتُ وأخرجتُ رأسي من فتحة تحت رأسِ الدُبِّ حتّى كانَ مَنْ يَرَانِي في تلكَ الساعةِ يَظُنُّ الدُبَّ نفسه ، وما هي إلا دقيقةٌ بعد أن انتهيتُ من هذا العمل حتّى وصل إلى مكاني الصفِّ الأوّلُ من قطع الدُّبِّيَّة ، وكان لا يقل عن عشرين دُبًّا ، وما هي إلا دقائقُ حتّى كان المكانُ حَوْلي يَصْخَبُ بِمِثَالِ من هذه الحيوانات .

لقد كنتُ أحسُّ وأنا مُتَدَثِّرٌ بهذا الفراءِ السميكَ بِالْبَرْدِ تَارَةً وبالحرارةِ الشديدةِ أُخْرَى ، ولكن برّاعتي في الاختفاء لم تَحْنُ . كان المكانُ حَوْلي كما قلت يزخر بهذه الحيوانات الكاسرة التي كانت تزوم وتهمهم وتدور حَوْلي كأنها تبصتُ عن شيءٍ قفّيدٍ ، ولا شك أنها خُدِعَت بالقناعِ الذي ألبسُهُ فلم تُهاجني حتّى ظننتُ أن الأمرَ قد انتهى عند هذا الحدِّ إلى أن وقع حادثٌ عجيبٌ ، وذلك أن هذه الحيوانات أخذت ترُقَصُ وتمايلُ وتدقني وكأنها تدعوني إلى مشاركتها في العَليَا . فلم أتردّدْ بل طَفِقتُ أحاكِها بقدرِ ما أستطيعُ تمثيلَه من هذه الحركاتِ ، بينما أخذتُ أفكّرُ في الوسيلةِ التي أستطيع بها أن أُنْخَلَصَ من هذه الصّحبةِ التي لا خيرَ فيها .

تذكرت في تلك اللحظة أن الضربة التي يُطعن بها المقاتل من الخلف طعنة قاتلة مُميتة لساعتها، لذلك فكرت في أن أستعين بها في الخلاص من هذا المأزق فلم أردد بل قبضتُ على مُدبتي وطمعتُ بها أضخم هذه الدببة في أعلى ظهره بين كَفَيْهِ ...

لست ألوكم إذا سالتوني عما إذا كانت هذه الطعنة محاولة جريئة من جانبي؟ والحقيقة أنها كذلك، لأنه من الواضح أن هذا الوحش إذا لم تقتله الطعنة انقلب على واثقه منى شر انتقام، ولكن محاولتي والحمد لله تكللت بالنجاح؛ ودون أن يحدث الدب صوتاً ما سقط كالضخمة السماء تحت أقدامى .

فدفعني هذا الانتصار إلى أن أكرر التجربة آلاف المرات، وكان من حُسن حظي أنني قد تناولتُ كفايتي من الطعام على مائدة الفطور، لهذا كنتُ أحسُ بالنشاط كلما قطعتُ شوطاً في هذه المهمة، فكنتُ أطيعُ بهذه الدببة ذات اليمين وذات الشمال حتى أتيتُ على آخرها، عند ذلك خرجتُ من مخبئي مُتصراً كما فعلَ شمشون عندما قَصَى على ألفٍ من الفلسطينيين .

ثم إنني ذهبتُ إلى السقيفة وعلدتُ ومعى ثلاثة أرباع من عليها من الملاحين والعَمَالِ الذين طفقوا يسلخون هذه المئات من الدببة حتى إذا ما اتهموا عادوا بفرائمها الثمينة الى ظهر السفينة .

وعندما مالت الشمس للغيب كانت مُهمتي قد انتهت، وكم أسف القبطانُ

« فَبَسْ » على أَنَّهُ لَمْ يَشْتَرِكْ فِي هَذِهِ الْمَرْكَةِ الْمَائِلَةِ الَّتِي انْتَهَتْ بِنَيْمَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ
فِرَاءِ الدُّبِّ .

...

قَمْتُ بِرَحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ أُخْرَى بِصُحْبَةِ الْقُبْطَانِ « هَمِلْتُنْ » إِلَى جُزُرِ الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ ،
وَقَدْ حَدَثَ أَتْنَاءَ هَذِهِ الرَّحْلَةِ أَنَّ كُنْتُ أَصْطَحِبُ كَلْبًا بَارِعًا مِنْ كِلَابِ الصَّيْدِ ،
فَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ اجْتَمَعَ الرَّأْيُ - بِنَاءً عَلَى مَا قَامَ بِهِ الرَّبَّانُ مِنْ دِرَاسَةٍ وَمِنْ حِسَابٍ -
عَلَى أَنَّ سَفِينَتَنَا تَبْعُدُ عَنْ أَقْرَبِ شَاطِئٍ بِمَا لَا يَقِلُّ عَنْ ثَلَاثِمِائَةِ مَيْلٍ ، يَبْدَأُنِّي اعْتِرَاضُ
عَلَى ذَلِكَ إِذْ لَاحِظْتُ أَنَّ كُلَّيْ مُنْذُ سَاعَةٍ مَضَتْ يُنْدِي مِنَ الْحَرَكَاتِ مَا يَدُلُّ عَلَى
أَنَّهُ وَخْشًا مِنَ الْوُحُوشِ قَرِيبًا مِنَّا ، وَلَكِنْ هَذَا الْاعْتِرَاضُ لَمْ يَفْعَلْ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ
يُثِيرَ حَاصِفَةً مِنَ الصَّحَكِ بَيْنَ رِجَالِ السَّفِينَةِ لِأَنَّهُ يَنَاقِضُ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْخَرَائِطُ
الْبَحْرِيَّةُ .

وَلَمَّا كَانَتْ رَفَقِي بِكَامِي لَا تَحْتَمِلُ الشَّكَّ لَمْ أُتَرِّدْ ، بَلْ تَحَدَّثْتُ الْقُبْطَانِ
بِرَهَانٍ قَدَرُهُ مِائَةُ جُنْتِهِ عَلَى أَنَّا سَنَلْقَى بَعْدَ قَلِيلٍ بَوْحْشِي مِنَ الْوُحُوشِ . فَلَمَّا سَمِعَ
الْقُبْطَانُ هَذَا - وَكَانَ رَجُلًا طَيِّبَ الْقَلْبِ - ابْتَسَمَ وَهَزَّ كَتِفَ طَيِّبِ السَّفِينَةِ ،
وَقَالَ لَهُ :

— « إِنِّي لَا أَقْبَلُ رَهَابًا إِذْ أَشْكُ فِي سَلَامَةِ عَقْلِ مَوْشَاهُوزِنِ ! »
فَأَجَابَهُ الطَّيِّبُ هَمْسًا ، وَلَكِنْ بِصَوْتٍ يَتَسَنَّى لِي سَمَاعُهُ :

— ولا يأسئدى القبطان ! إنه فى تمام عقله وصحته غير أن ثقتة بأنف كلبه أشد من ثقتة بقول جميع من على هذا المركب من الضباط، وأنه سيفقد الرهان ولا ريب فى ذلك ؛ ولكن مع ذلك فله أن يكسبه ... ،

وفى أثناء ذلك كنت أراقب كلبى ، فازددت يقيناً بأنه لا يكذبنى لهذا لم أردد فى أن أعرض الرهان مرة أخرى على القبطان الذى لم يربعه ذلك كله وسيلة إلا الموافقة ، وما كدنا تنتهى من المصافحة دليلاً على قبول الرهان حتى كان بعض الملاحين الذين يشتغلون بالصيد يسحبون كلباً كبيراً من كلاب البحر إلى ظهر السفينة ! عند ذلك ازداد اضطراب كلبى كما يفعل عادة عند ما يقترب من صيد برى . ولما فتحنا بطن كلب البحر وجدنا ستة أزواج من الإوز البرية وكانت جميعها حية . ولا شك فى أن هذه الطيور المسكينة كانت قد قصت مدة طويلة فى سجنها هذا لأننا ألقينا إحداها راقدة على سبعة عشر يضة .

وفى تلك اللحظة التى فتحنا فيها بطن السمكة فقصت إحدى هذه البيضات . فأخذنا هذا الكتكوت ووضعناه مع أسرة من القطيطات كانت قد ولبت فى تلك الساعة وسرمان ما توقعت الصداقة بين الكتكوت وبين القطيطات الأربعة . ولم تخل مائدتنا خلال هذه الرحلة من الطيور المشوية إذ كانت تلك الوزات تبيض وتفقس بنير أنقطاع .

قضينا في رحلتنا هذه بضعة أسابيع حتى وصلنا إلى مكان يبعد مائة ميل إلى الغرب من سوطمطره فعبّرنا خط الاستواء بشمس اللافحة وبمناثملا في خليج البنغال صوب كلكتا، عند ذلك أبصرنا قطيعا من الأسماك الهائلة أحاطت بالسفينة حتى أن سرعتها تأثرت كثيرا بفعل هذه الأسماك.



كانت إحداها من الضخامة بحيث أننا لم نستطيع تقدير طولها حتى استعنا في ذلك بالمنظار المقرّب ! وأخذت هذه السمكة الهائلة تقرب منا شيئا فشيئا حتى إذا حاذتنا فتحت فمها واسعا كالبوابة الضخمة فأنحرفت سفينتنا نحو هذا القم المفتوح بسارياتها وأشرعتها وجميع ما عليها وكانت السارية الكبرى تبدو لنا بين الأسنان والأنياب وكأنها عود تقاب، ولا أظنكم تصدقوني إذا أكدت لكم أن مقامنا بين فكّي هذه السمكة كان مريحا ممتعا، مع أنكم تعلمون هي أنه يستحيل على أن أ كذب أو أغير الحقيقة. ولعل رغبتي في تصوير الواقع على حقيقته طيبة متصلة عندى لأنني أعرف أقرباء لي نزلت بهم إصابات

خَطِيرَةٌ فِي بَعْضِ مَوَاقِعِ الْقِتَالِ لَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا الْيَوْمَ إِلَّا فِي سُورَةٍ هِيَ دُونَ حَقِيقَتِهَا .
وبعد أن مَكَّنَّا وَقْتًا حَيْثُ كُنَّا ، فَتَحَتِ السَّمَكَ فَمَّا فَا نَدْفَعُ الْمَاءَ فَجَرَفَ
سَفِينَتَنَا - وَلَمْ تَكُنْ مَرَكَبًا صَغِيرًا - إِلَى جَوْفِهَا ، وَهُنَاكَ وَقَدْ امْتَنَعَتِ الرِّيَّاحُ
جَدْنَا فِي مَكَانِنَا . أَمَّا الْهَوَاءُ فَكَانَ دَفِئًا مُشْبِمًا يُخَارِ الْمَاءَ لِهَذَا لَمْ يَكُنْ
مَحْتَمَلًا ، أَمَّا الظَّلَامُ فَكَانَ دَائِمًا فِي هَذَا الْمَكَانِ الْحَيْسِ وَلَمْ تَكُنْ تَنْبِرُهُ مِنْ
وَقْتٍ إِلَى وَقْتٍ إِلَّا أَسْوَاءُ بَعْضِ الْمَشَاعِلِ الَّتِي لَمْ يَسْطَعْ نُورُهَا إِلَّا فِي دَائِرَةِ ضَيْقَةٍ
غَيْرِ أَنَّهَا كَانَتْ تُضْفِي عَلَى الْمَكَانِ بِأَسْرِهِ شَيْئًا مِنْ وَقْتِ النَّسَقِ ، وَهَنَّاكَ فِي جَوْفِ
هَذَا الْحَوْتِ وَجَدْنَا أَكْثَرَ مِنْ هَلَبِ سَفِينَةٍ وَاحِدَةٍ وَأَحْمَالًا مِنَ السَّلَاسِلِ الْحَدِيدِيَّةِ
وَقَوَارِبَ وَعَدَدًا لَا يُحْصَى مِنَ السَّفَائِنِ بَعْضُهَا مُحْمَلٌ بِالْبَضَائِعِ وَبَعْضُهَا فَارِغٌ
وَجَمِيعُهَا قَدْ وَجَدَتْ طَرِيقَهَا إِلَى بَطْنِ هَذَا الْحَوْتِ .

أَمَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ سَبِيلِ لُرُؤَيْهَا فِي هَذَا الْمَكَانِ
وَكَانَ مِنَ الْبَدِيهِ إِلَّا يَكُونُ لِلنَّهَارِ أَمْرٌ فِي هَذَا الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ ، وَكَانَ الْمَاءُ الَّذِي يَطْفَحُ
بِهِ بَطْنُ الْحَوْتِ يَتَأَثَّرُ بِعَامِلِي الْمَدِّ وَالْجُزْرِ كَمَا تَتَأَثَّرُ بِهِمَا مِيَاهُ الْبَحْرِ ؛ فَنَحْنُ كُلَّ يَوْمٍ
تَرْتَفِعُ مِيَاهُ الْمَدِّ تَعُودُ إِلَى الْمَهْبُوطِ ، فَإِذَا مَاقَتَحَ الْحَوْتُ فَهُوَ لِلشَّرْبِ تَدَقَّقَتِ الْمِيَاهُ
وَأَصْبَحَ جَوْفُهُ وَكَأَنَّهُ بُحَيْرَةٌ «جَنيف» اتَّسَاعًا ، فَلَا يَقِلُّ مُحِيطَةٌ عَنْ ثَلَاثِينَ مِيلًا ثُمَّ يَأْخُذُ
هَذَا الْمَاءُ فِي الْمَهْبُوطِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْجُزْرُ حُدَّهُ مَالَتْ جَمِيعُ السُّفُنِ كَمَا تَعْمَلُ
فِي الْمَاءِ الضَّحَضِاحِ إِلَى أَنْ يَعُودَ الْمَاءُ ثَانِيَةً فَيَحْمِلُهَا عَلَى مَتْنِهِ . فَإِذَا كَانَتْ سَاعَةٌ

الجزر كنا نخرج على أقدامنا نَبْكَدُ الزَّيَاةَ يَتَنَا وَبَيْنَ غَيْرِنَا مِنَ الْمَسْجُونِينَ فِي هَذَا الْمَكَانِ ، أَمَا فِي سَاعَاتِ الْفَيْضَانِ فَكُنَّا نَسْتَحْدِمُ صَفَارَ الْقَوَارِبِ لِنَصِلَ إِلَى جِيرَانِنَا ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ بَعْضَ هَؤُلَاءِ قَضَى فِي هَذَا الْحَبْسِ بِضْعَ سِنِينَ .

وَإِنِّي لَا أَكْأَدُ أَغْفِلُ كَيْفَ أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّاسَ ارْتَضَوْا أَنْ يَمِشُوا فِي هَذَا الْمَكَانِ أَعْوَامًا طَوِيلَةَ دُونَ أَنْ يَجِدُوا الْأَتْقُسَهُمْ نَخْرَجًا ، وَلَوْ أَنَّهُمْ تَمَكَّنُوا مِنْ فَتْحِ حَفْرَةٍ فِي جِسْمِ هَذَا الْمَارِدِ أَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا عَلَى الْقَضَاءِ عَلَيْهِ بِتَخْرِيبِ صِمَامَاتِ قَلْبِهِ لَتَمَكَّنُوا مِنَ الْخِلَاصِ . ثُمَّ إِنِّي اجْتَمَعْتُ بِمَقْدَمِ سَفِينَتِنَا وَأَخَذْتُ وَإِيَّاهُ نَتَبَايَحُ فِيمَا إِذَا كَانَ مِنَ الْمَيْسُورِ أَنْ نَرْبِطَ عِدَّةً مِنَ السَّوَارِي سَوِيًّا ، فَإِذَا فَتَحَ الْحَوْتُ فَاهُ بَتْنَاهَا بَيْنَ فَكَيْهِ حَتَّى يَمْتَنِعَ عَلَيْهِ قَفْلُهُ . فَلَمَّا اتَّهَمْنَا إِلَى هَذَا الرَّأْيِ تَخَيَّرْنَا سَبْعًا مِنْ كِبَارِ السَّوَارِي وَحَزَمْنَاهَا سَوِيًّا ثُمَّ تَخَيَّرْنَا مِائَةً مِنَ الرِّجَالِ الْأَشْدَاءِ لِيَكُونُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ حَتَّى إِذَا فَتَحَ الْحَوْتُ فَاهُ بَتْنُوا هَذِهِ السَّارِيَةَ بَيْنَ فَكَيْهِ فَنَمُوا لِسَانَهُ الْمَاهِلَ مِنَ الْحَرَكَةِ وَمَنَعُوا فَكَيْهِ مِنَ الْإِنْطِبَاقِ ثَانِيًا .

فَمَا إِنْ أُنْذِفَ الْمَاءُ إِلَى جَوْفِ الْحَوْتِ حَتَّى بَدَأَتْ صُنُوفُ مِنَ الْقَوَارِبِ وَالسُّفُنِ كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا تَلْمَسُ طَرِيقَهَا لِلخُرُوجِ وَلَمْ يُطَبِّقْ هَذَا الْمَارِدُ فَكَيْهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَجَدَتْ هَذِهِ الْجُمُوعُ الْمُحْتَشِدَةَ سَبِيلَ النِّجَاةِ وَالْحُرِّيَّةِ ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ إِلَّا التَّرُّزُ الْقَلِيلُ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعِيشَ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْمَجْهُولِ .

خَرَجَ هَذَا الْأَسْطُولُ فِي شَكْلِ مُظَاهَرَةٍ بِحَرِّيَّةٍ بَدِيلَةٍ نَظْمِهَا أَكْبَرُ

الْقَابِلَةُ سَيَّأَتْ؛ كَانَتْ عِنْدَ هَذِهِ الْقَافِلَةِ ثِيَمًا وَسَبْعِينَ سَفِينَةً عِدَا صُنَارِ الْقَوَارِبِ وَالْمَرَاكِبِ.
وَعِنْدَ مَا خَرَجْنَا إِلَى الْهَوَاءِ لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ أَيْنَ كُنَّا؟

يَبْدَأُ جَمِيعَ صُبَّاطِ هَذِهِ السُّفُنِ - وَهِيَ مِنْ شُعُوبٍ وَأَجْناسٍ مُتَخَلِّفَةٍ - اجْتِمَعَ
رَأْيُهُمْ عَلَى أَنَّنَا فِي بَحْرِ قَرْوِينَ وَهُوَ - كَمَا نَعْرِفُونَ - بَحْرٌ مُتَلَقٍ لَا يَتَّصِلُ بِغَيْرِهِ مِنْ
الْبَحَارِ وَلَا يَصُبُّ فِي مَحِيطٍ مِنَ الْمَحِيطَاتِ. لِذَلِكَ كَانَ هَذَا دَلِيلًا لَا يَقْبَلُ الشَّكَّ عَلَى
أَنَّ هُنَاكَ بِحَارًا سَفَلِيَّةً تَصِلُ الْبَحَارَ بِمَضَاهَا بِيَمْنَى، فَجَاءَ ذَلِكَ الْحَوْتُ بِنَا مِنْ
الْمَحِيطِ الْهِنْدِيِّ إِلَى هَذَا الْبَحْرِ عَنْ طَرِيقِ هَذِهِ الْمَجَارَى الْأَضْيَاءِ.



أَقْلَعْتُ سَفُنًا كُلَّ جَمَاعَةٍ مِنْهَا فِي اتِّجَاهٍ خَاصٍّ، وَلَمْ يَأْتِ الْمَسَاءُ حَتَّى وَصَلْنَا
جَمِيعًا إِلَى الشَّاطِئِ الدَّائِرِيِّ الَّذِي يَحِيطُ بِنَا. وَلَمَّا بَلَغْتَ سَفِينَتَنَا مَرَسَاهَا كُنْتُ
أَوَّلَ مَنْ وَثَبَ مِنْهَا إِلَى الْأَرْضِ فَلَمْ أَسِرْ طَوِيلًا حَتَّى اسْتَرَعَتْ سَمْعِي غَمَمَةً عَالِيَةً
وَمَا لِنْ تَأَلَّفْتُ حَتَّى أَبْصَرْتُ يُجَانِبِي دُبًّا أَخَذَ يَقْتَرِبُ مِنِّي وَهُوَ فَاتِحٌ ذِرَاعَيْهِ كَأَنَّهُ

يَسْتَقْبِلُنِي، فلم أَهَيِّبْ بِلِ تَقَدُّمَتُ مِنْهُ وَأَمْسَكْتُ بِكِلْتَا كَفَيْهِ وَهَزَزْتُهَا هَزًّا عَنِيقًا
لَأُرْدَّ نَحْيَتَهُ، وَلَكِنْ شِدَّةُ قَبْضَتِي جَعَلَتْهُ يُحَاوِلُ الْإِفْلَاتَ مِنِّي وَأَخَذَ يَعْوِي
وَيَصْرُخُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ، ثُمَّ إِنِّي خَفَفْتُ عَنْهُ شِدَّةَ الْقَبْضَةِ وَلَكِنْ تَرَكْتُهُ وَاقِفًا
عَلَى قَدَمَيْهِ عِقَابًا لَهُ حَتَّى عَضَهُ الْجَوْعُ.

وَلَا أُدْرِي كَيْفَ مَادَ الْقُبْطَانُ هَمَلْتَنِ إِلَى انْجِلْتِرَاءِ كُلِّ مَا أَعْلَمُهُ أَنَّهُ مَرَّ بِي فِي
الْيَوْمِ الثَّانِي مَائَتَانِ مِنْ رِقَاقِنَا مِنْ نُزْلَاءِ جَوْفِ الْحَوْتِ وَدُخْمٌ فِي طَرَفِهِمْ إِلَى إِيرَانَ،
فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ اخْتَارُونِي قَائِدًا لَهُمْ فِي رَحْلَتِهِمْ وَدَلِيلًا لِقَافِلَتِهِمْ، وَقَدْ صَحَبَنِي
فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ عِشْرُونَ مِنْ رَجَالِي أ

الليلة الرابعة عشرة

وَصَلْنَا إِلَى مَدِينَةِ بَاكُو عَلَى بَحْرِ قَزْوِينَ وَسَارَتْ قَافِلَتُنَا جَنُوبًا بِحِذَاءِ الشَّاطِئِ
حَتَّى وَجَدْنَا أَنْفُسَنَا فِي إِحْدَى الْمَقَاطِعَاتِ الَّتِي يَحْكُمُهَا شَاهُ إِيرَانَ، وَسَبَّكَانُ
هَذِهِ الْمُنَاطِقَةِ مِنْ أَهْلِ الْقَوَاقِرِ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا مِنْذُ الْقِدَمِ بِزَعْمِهِمْ إِلَى الْحُرِّيَةِ وَعَدَمِ
خُضُوعِهِمْ خُضُوعًا فَلْيَا لِسُلْطَانِ الشَّاهِ، كَمَا أَنَّهُمْ لَا يَمْتَرِفُونَ بِسُلْطَةِ الْقَيْصَرِ عَلَيْهِمْ،

لهذا كانوا يقطعون طريق القوافل التي تَصْرِقُ هذه الولاية غرباً أو جنوباً حتى أصبح السفر فيها لا تؤمن عواقبه .

وفي عَشِيَّةِ أَحَدِ الْأَيَّامِ وَقَبْلَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ وَصَلْنَا إِلَى وَادٍ مَرْعٍ يُرْوِيهِ أَحَدُ الْيَنَابِيعِ ؛ وَلَمَّا كَانَ التَّعَبُ قَدْ أَخَذَنَا مَا أَخَذَهُ رَأَى أَصْحَابِي أَنْ يَقْضُوا الْمَسَاءَ فِي هَذَا الْمَكَانِ فَأَنْزَلَتِ الْقَافِلَةُ رِحَالَهَا وَكَانَتْ عِدَّتُهَا نَحْوَ مَائَتَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلًا ، وَتَحَيَّرْتُ صَخْرَةً فِي وَسْطِ الْوَادِي اسْتَعْدَمْتُهَا كَثِيرٌ لِلخُطَابَةِ أَجْمَعِ حَوْلَهُ رَجَالِي ؛ وَبَصُوتِ كَزِيرِ الْأَسَدِ تَجَاوَبَتْهُ أَرْكَانُ الْوَادِي وَقَفْتُ فِيهِمْ خَطِيبًا وَأَنْذَرْتُهُمْ بِصَفَى دَلِيلِهِمُ الْخُتَارَ أَنَّ هَذَا الْمَكَانَ لَا يَصْلُحُ لِلْإِقَامَةِ لِأَنَّهُ عَرِضَةٌ لِهُجُومِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ الْجَبَلِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ ؛ الَّتِي تَغْضِي جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ وَحَلَى رَأْسِ كُلِّ جَمَاعَةٍ قَائِدٌ مَدَجِّجٌ بِالسَّلَاحِ يَسِيرُ فِي مُقَدِّمَتِهِمْ وَهُوَ مُتَّكِرٌ فِي زِيٍّ امْرَأَةٍ . ثُمَّ إِنِّي مَنَعْتُ رَجَالَ الْقَافِلَةِ سَاعَةً لِيَتَشَاوَرُوا وَيَقْرَرُوا إِمَّا مُوَاصَلَةَ السَّيْرِ مَعِيَ أَوِ الْبَقَاءَ فِي هَذَا الْمَكَانِ .

ثُمَّ إِنِّي تَرَكْتُ الْمُعْسَكَرَ يَتْبَعُنِي اثْنَانِ مِنْ رَجَالِي الْخُلُصَاءِ وَذَهَبْنَا بَاحِثِينَ عَنْ مَكَانٍ آمِنٍ فِي بَطْنِ هَذَا الْوَادِي ، فَارْتَقَيْنَا مُرْتَفَعًا صَخْرِيًّا يَصِلُ سَلَامِلَ الْجِبَالِ الْقَرِيبَةِ بِأَكْوَامٍ مُتَنَازِرَةٍ مِنَ الصُّخُورِ ، لِهَذَا كَانَ مِنَ السَّهْلِ الدَّفَاعُ عَنْهُ إِذَا هَاجَمَهُ الْأَعْدَاءُ . فَلَمَّا عُدْنَا إِلَى الْمُعْسَكَرِ وَجَدْنَا جَمَاعَتَنَا قَدْ أَوْقَدُوا النَّارَ وَأَعْدَوْا الْمَوَاعِينَ لَطَهْنِي الْعِشَاءَ ، فَارْتَقَيْتُ مُنْبَرًا لَخُطَابَةِ مَرَّةٍ ثَانِيَةٍ فِي هُدُوءٍ وَقَدْ شَاعَتْ فِي وَجْهِ ابْتِسَامَةٍ سَاخِرَةٍ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْسَحِبُوا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ فِي الْحَالِ

إلى رأس تلك الصخرة حيث السلامةُ وحيثُ ماء النبعِ وفيرٌ، فمن رضى بقيادتي دعوته أن يتبعني ، ومن أبى إلا أن يقبعَ في مكانه فهو وشأنه .

وما إن انتهيتُ من كلامي حتى تصاعدتُ من المُسكرِ جلبةٌ وضوضاءٌ حتى إذا سكنتُ لم أجِدْ حولي إلا أربعين رجلاً من خيارهم .

أما بقيةُ الجماعةِ وهم مائتان على الأقلَ ففضلوا البقاء حيث كانوا . فلما ارتَقينا إلى قمةِ الصخرةِ وطلّعَ القمرُ ألقينا ذلك المُسكرَ من تحتنا وقد بدا في ضوء القمرِ رائعاً بديعاً .

وما إن انقضتْ بُرْهةٌ حتى طرقَ آذاننا ضياحٌ وزعيقٌ ونداءٌ كما يحدثُ إذا خاضَ المهنودُ الحُرُّ حرباً أو قاموا بهجومٍ مُفاجئٍ على عدوّ، فتجمّعنا على حافةِ صخرتنا المنبوعةِ وأبصرنا من مكاننا المرتفعِ جماعةً من قُطّاعِ الطُرُقِ يشنونُ هُجوماً خاطفاً على مُعسكرِ أولئك النَّائمينَ في بطن الوادي وهم أقلُّ منهم عدداً بكثيرٍ . ولم تستمرِ الموقعةُ بين رجالِ القافلةِ وقُطّاعِ الطُّريقِ إلا وقتاً قصيراً انتهتْ بقتل الكثير من رجالِ القافلةِ وأخذَ من بقيَ منهم أسيراً . لقد كان عِقابُ هؤلاء سريعاً ولكنه كان عِقاباً فظيماً رهيباً . ومنزٌ بخاطري في تلك البُرْهةِ أن أندفعَ لتخليصِ هؤلاء الأسرى ولكني وجدتُ أن كلَّ مُحاولَةٍ لا بدَّ وأن مصيرها الفشلُ، وإن هي دلتْ على شيءٍ قتلِ الحُمقِ والطيشِ ، لهذا اتّجعتُ الرأى على الانتظار في مكاننا حتى مطلعِ الفجرِ .

فلما كان اليوم الثاني عاودنا المسير، وكان طريقنا بجانب مكان المَوْفِعة التي
 جرت في لَيْلَتِنَا القَاهِبَةِ فوجدناه مهجوراً، وقد رأيتُ من أصالة الرأى أن نَحْفَني
 على نسق قطع الطُرق في زِيَّ النساءِ ففعلنا، وسرتُ في مُقَدِّمَةِ الْجَمَاعَةِ حتَّى
 إذا انحرَفْنَا قليلاً عن مَكَانِ المِرْكَةِ وجدنا قافلة من الخيلِ على راسِها ثلاثة من
 الشَّراكِسة، وقد بَطِطَ الجيادُ الواحدُ منها إلى الآخر، وكانت لا تَقِلُّ عن مِيتَيْنِ
 فَرَسًا. وما إن رَأَا الشَّراكِسةُ حتَّى رَكُوا جِيَادَهُمْ وَأَقْبَلُوا عَلَيْنَا على عَجَلٍ وقد
 كانت ملايسُنَا سبباً في غَوَايِهِمْ.

نصغتُ جماعتي بأن يلزموا جانب الهدوء فلا يحدِّثوا صَوْتًا ولا يَسْتَخْدِمُوا
 بِنْدَقِيَّةً فَتَسْدُو حَقِيقَتَهُمْ؛ حتَّى أَقْبَلَ هؤلاء الشَّراكِسةُ بوجوه ساخرة مُطْمَئِنَّةً،
 وما إن اقترَبُوا من رِجَالِنَا الْمُقْنَمِينَ فِي زِيَّ النساءِ حتَّى أَتَقَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ خَنْجَرًا
 فِي ظَهْرٍ وَاحِدٍ مِنْ هؤلاء الْمُتَعِدِينَ، فسقط ثلاثهم على الأرض دون أن يحدِّثوا صَوْتًا
 أو يَحَاوِلُوا المَقَاوِمَةَ. ثم وثبنا على تلك الخيولِ نُسَاقِبُهَا بِهَا الرِّيحَ، وكان أصحابُهَا
 فِي تِلْكَ السَّاعَةِ يَتَقَاسِمُونَ الْغَنَائِمَ الَّتِي نَهَبُوهَا بِالْأَمْسِ، وما هي إِلَّا لِحَطَاتٌ حتَّى
 كُنَّا عَلَى مَسَافَةِ بَعِيدَةٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ. ثم توقَّفْنَا بَعْدَ قَلِيلٍ عِنْدَ جَدُولِ مَاءٍ لِنَسْقِي
 هَذِهِ الْخَيُْولَ فَخَلَعْنَا مَلَابِسَنَا النِّسْوِيَّةَ وَالْقَيْنَا بِهَا وَنَحْنُ نَضْحَكُ وَنَسْخَرُ.

لم نَسِرْ طَوِيلًا حتَّى اعْتَرَضَ طَرِيقُنَا جَمَاعَةٌ مِنْ حَرَمِ الْحُدُودِ الْإِيرَانِيَّةِ الَّذِينَ
 أَخَذُوا يَسْأَلُونَنَا عَنْ غَايَتِنَا وَعَنِ الْمَرَضِ مِنْ هَذِهِ الرَّحْلَةِ. وما إن أَعْلَنْتُ لَهُمْ اسْمِي

وَبَيَّنْتُ لَهُمْ حَقِيقَتِي حَتَّى اسْتَسْجُوا بِالْبِدَاهَةِ أَنْتَى ذَاهِبٌ لَزِيَارَةِ صَاحِبِ الْجَلَالَةِ
الشَّاهِ؛ فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ خَلَعُوا قَلَانِسَهُمْ عَنْ رُؤُوسِهِمْ احْتِرَامًا وَأَخَذُوا يُقَمِّمُونَ
بِاللُّغَةِ الْفَارَسِيَّةِ يُخْبِتُونَ صَاحِبَ السَّعَادَةِ الْبَارُونَ فَوْن مَوْلَاهَاوَزِينَ .

وبعد يَوْمَيْنِ وَصَلْنَا مَدِينَةَ طَهْرَانَ ، غَيْرَ أَنَّنَا قُوجُنَّا بِمُخْبِرِ سَفَرِ الشَّاهِ
وَجَمِيعِ حَاشِيَتِهِ إِلَى شِيرَازَ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ ، فَأَسِفْتُ لَدَلَاكَ جَدًّا الْأَسَفَ .

وَكَانَ التَّرْحَابُ بِنَا بِالنَّاحِيَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ نَزَلْنَاهُ وَكُنَّا تُقَابِلُ كَمَا تُقَابِلُ الْمُلُوكَ ،
وَأَخَذْتُ الْجَاهِلِينَ تَنْصَحُ إِلَى رِكَابِنَا حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ دَخَلْنَا مَدِينَةَ شِيرَازَ
عَلَى رَأْسِ مِائَةِ أَلْفِ رَجُلٍ ! وَكَانَتْ أَخْبَارُنَا تُصَلُّ إِلَى الشَّاهِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ تُرْسِلُهَا إِلَيْهِ
رِجَالُ الْحُكُومَةِ كُلَّمَا نَزَلْنَا بِلَدًا مِنَ الْبِلَادِ ، وَكَانَتْ الْجَرِيدَةُ الرَّسْمِيَّةُ لَا تَقْتَنُ تُنْشَرُ
تَقْنًا مِنْ هَذِهِ الْأَخْبَارِ كُلِّ يَوْمٍ .

فَلَمَّا أَنْ وَصَلْنَا الْقَصْرَ الصَّغِيرَ لِلشَّاهِ فِي شِيرَازَ أَلْفَيْنَا الشَّاهَ فِي اسْتِقْبَالِنَا وَقَدْ أَحَاطَ
بِهِ رِجَالُ الْقَصْرِ وَكِبَارُ رِجَالِ الدَّوْلَةِ ؛ عِنْدَ ذَلِكَ نَزَلَ عَنْ جَوَائِدِهِ فَفَعَلْتُ مِثْلَهُ ، ثُمَّ
اقْتَرَبَ مِنِّي وَاحْتَضَنَنِي وَأَبْدَى شَدِيدَ الشُّرُورِ لِلِقَائِي . ثُمَّ تَفَضَّلَ جَلَالَتُهُ فَمَنْحَنِي الْوَسَامَ
الْأَكْبَرَ لِلشَّمْسِ الْمَصْنُوعِ مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ وَالْمُحَلَّى بِوَرْدَةِ شِيرَازَ الَّتِي تُنْفِ بِهَا
الشَّاعِرُ حَافِظُ الْفَارَسِي ؛ وَفَضَّلَ عَنْ ذَلِكَ فَإِنْ جَلَالَتُهُ أَبْدَى نَحْوِي عَطْفًا خَاصًّا ،
فَكَانَ يَخَاطِبُنِي خُطَابَ التَّنْدِ لِلتَّنْدِ إِذَا مَا اخْتَلَيْنَا سَوِيًّا وَلَمْ يَسْمَعْنَا أَحَدٌ ، لِأَنَّ ذَلِكَ
تَنَازُلٌ عَظِيمٌ مِنْ جَلَالَتِهِ .

الليلة الخامسة عشرة

أصدقائي ورفاقي الأعزاء :

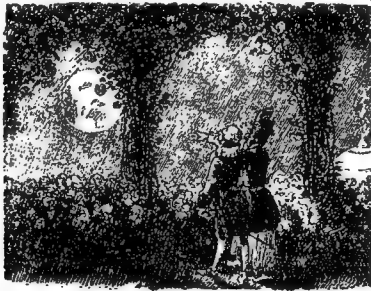
رُبما كَانَ مَا سَأَفُصِّلُ عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَعْجَبَ مَا مَرَّ بِي فِي حَيَاتِي الطَّوِيلَةِ
مِنْ مُغَامِرَاتٍ وَمُحَاوَلَاتٍ، وَلَا أَطُقُّ قَدْ أَفْضَيْتُ بِهَذَا السَّرِّ قَبْلَ الْيَوْمِ؛ وَلَكِنَّكُمْ
إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى التَّوَارِيخِ الْفَلَكَيَّةِ الْفَارِسِيَةِ تَجِدُونَ طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ الْمَجِيدِ
الَّذِي قَتَّ بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَجُودِي فِي تِلْكَ الْبِلَادِ.

لَمْ يَخُصْ عَلَى وَصُولِي إِلَى شِيرَازَ بَعْضَةُ أَسَابِيحَ حَتَّى اتَّيَحَّتْ لِي الْفُرْصَةُ لِأَقُومَ
لِلشَّاهِ بِمَهْمَةٍ بَاهِرَةٍ النَّتَاجِ؛ وَأَرِيدُ أَنْ أَذْكَرَ لَكُمْ بِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ أَنَّ جَلَالَهَ الشَّاهَ كَانَ مِنْ
بَيْنِ مَا يُعْنَى بِهِ دِرَاسَةُ الشُّؤْنِ الْفَلَكَيَّةِ لَا سِيَّمَا فِيمَا يَخُصُّ الْقَمَرَ وَأَدْوَارَهُ. فَحَدَّثَ
ذَاتَ لَيْلَةٍ وَكَانَ الْقَمَرُ بِدَرَأٍ أَنْ خَرَجْنَا - وَأَعْنَى بِذَلِكَ الشَّاهَ وَأَنَا - فِي حَدَائِقِ الْقَصْرِ
وَأَخَذْنَا تَجَوُّلَ بَيْنِ الْعَرَائِشِ الَّتِي كَانَتْ تَقُوعُ مِنْهَا رَائِحَةُ الْوَرْدِ الشَّدِيدَةِ، وَكَانَ
الشَّاهُ يَتَشَبَّهُ بِمَعْخَرَاتِ الشَّاعِرِ الشَّاهَانِي حَافِظٍ لِلشُّهُورِ، فَإِذَا بِهِ يَصْمُتُ فَجَاةً
وَيُصْبِحُ بِدِرَاعِي وَيُشِيرُ بِإصْبَعِهِ إِلَى الْقَمَرِ :

— أَتَعْرِفُ أَيَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الصَّدَأِ هَذَا الَّتِي يَسُودُ وَجْهَ الْقَمَرِ ؟
فَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا أَنْ أَجِبتُ :

— « لا ، لا ! يا صاحبَ الجلالةِ لَيْسَ الذى تَرَاهُ على وجهِ القمرِ صِداً ؛ بل
 هى ظاهرةٌ نمرُفُها فى بلادِنَا وتَدْعوها الخُسوفَ وهى تحدثُ إذا كان القمرُ
 مُكْتَنِلاً وسَقَطَ ظِلُّ الأرضِ على قُرْصِ القمرِ المُغْبِى ؛ عِنْدَ ذَلِكَ .. »
 فاعْتَرَضَنِى الشَّاءُ قَائِلاً :

— إذا حاولتُ أن تكونَ رَجُلًا مُتَفَلِّسًا فإنَّ ذَلِكَ يَحْمِلُكَ تَبْدُو كَالْأَمْحَقِّ ، فإنَّ
 ما تَرَاهُ على وجهِ القمرِ هو صِداً حَقِيقٌ وهو يحدثُ بسببِ رُطوبَةِ الطُّبَقَاتِ
 الهَوَائِيَّةِ . وإذا أردتَ زِيَادَةَ الإيضاحِ فاعْلَمْ أَنَّ تَسْأَلَ الفلكيِّ الشاهانِ :



لم أجِدْ داعِياً للسُّؤالِ وَالِاستفسارِ ، وإن كنتُ قَصَّيْتُ اللَّيْلَةَ وأنا أَفكِّرُ
 فى سؤَالِ آخر .. ، هو كيفَ يَنْسَنَى لِلإنسانِ أن يَنْفِذَ بنورِ العِلْمِ والمعرفةِ إلى العقولِ
 المَظْلَمَةِ التى خَيَّمَتْ عليها المِغْرافاتُ ؟

يَدُ أَنتَى هَوْنَتْ الْأَمْرُ عَلَى نَفْسِي وَقُلْتُ إِنْ أَكَلْتُ بِلَدِّ عَادَاتِهَا ، فَإِذَا اعْتَقَدَ
أَهْلُ بِلَدِّ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ فَنَ الْمُنْطَقِ السَّلِيمِ أَنْ نُحَاوِلَ تَقْرِبَ حَقِيقَةِ هَذِهِ
الظُّوَاهِرِ إِلَى عَقُولِهِمْ .

وَقَبْلَ أَنْ يَنْبَلِجَ الصَّبَاحُ تَرَكْتُ الْقَصْرَ وَذَهَبْتُ بَاحْتًا عَنْ عَرِيفِ السَّفِينَةِ
الَّتِي جَاءَ فِي صُحْبَتِي إِلَى شِرَازَ وَقَضَيْنَا سَاعَاتٍ طَوِيلَةً تُفَكِّرُ فِي ابْتِكَارِ آلَةِ لِسْحَبِ
الْقَمَرِ إِلَى الْأَرْضِ حَتَّى يَتَسَنَّى لَنَا تَنْظِيفُهُ وَتَلْمِيعُهُ .

فَلَمَّا اتَّهَيْنَا مِنَ التَّفَكِيرِ ، ذَهَبْتُ إِلَى الْقَصْرِ وَتَشَرَّفْتُ بِعَقَابِلَةِ جَلَالَةِ الشَّاهِ
وَأَخْبَرْتُهُ فِي خُضُوعٍ وَاحْتِرَامٍ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ تَمَّ إِعْدَادُهُ وَلَنْ نَقْضَى أَيَّامٌ حَتَّى
تَمَكَّنُ مِنْ مَسْحِ الْقَمَرِ إِلَى الْأَرْضِ لِنَجْلُوهُ مِنَ الصَّدَأِ .
فَصَاحَ الشَّاهُ فَرِحًا :

— « يَا لَكَ مِنْ رَجُلٍ بَارِعٍ يَا مَرْنَشَاوَزِنْ ! وَإِنِّي لِأَقِيمُ لَكَ بِلْحِيَةِ النَّبِيِّ
بَأَنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ لَأَرْفَعَنَّكَ فِي الْحَالِ إِلَى مَرْتَبَةِ الْإِمَارَةِ .

وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَفْسِي أَرْسَلْنَا فِي طَلَبِ سِتِّ مِائَةِ عَامِلٍ نَصِفُهُمْ لِعَجَلِ الرُّمَالِ
وَالنَّصْفُ الْآخَرُ لِنَرْبَلَتِهَا ، وَقَسَمْنَا هَؤُلَاءَ جَمِيعًا إِلَى ثَلَاثِ جَمَاعَاتٍ يَعْمَلُونَ فِي إِعْدَادِ
الرَّمْلِ وَغَرْبَلَتِهِ غَرْبَلَةً دَقِيقَةً حَتَّى يُصْبِحَ صَالِحًا لِجَلَاءِ الْقَمَرِ وَتَلْمِيعِهِ ؛ وَمَا إِنْ
اتَّهَيْنَا مِنْ ذَلِكَ حَتَّى بَدَأْنَا نُقِيمُ تِلْكَ الْآلَةَ الَّتِي فَكَّرْنَا فِيهَا طَوِيلًا وَالَّتِي سَتَكُونُ
كَافِيَةً لَجَذْبِ الْقَمَرِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَبَعْدَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ يَوْمًا بَعْدَ تَارِيخِ ذَلِكَ الْخُسُوفِ

بدأنا في استخدام هذه الآلة ، وبينما كان العالم المتحدّن يحتاجه الشكوك بسبب اختفاء القمر بضعة أيام . وكان ذلك موعد ظهور الهلال الجديد . كنا في أثناء ذلك في مدينة شيراز قد جذبنا القمر وأنزلناه من مكانه ، فوجدنا بالفعل أكواما من الصدا تغطي وجهه ، فسلطنا على دغكها وتنظيفها وجلاها حتى عاد وجه القمر مضيئا مثلنا كما كان .

ومنذ ذلك الحين أصبحت المادة أن يفعل القمر ذلك كل أربعة أسابيع .

...

وإني أتمنيحكم يا أصدقائي عذراً إذا أعدت عليكم القول لا ذكركم بأنني منحت أسمى الأوسمة أثناء وجودي في بلاد إيران ، فضلاً عن ذلك فإن الشاة أهدي إلى (كظهير من مظاهر شكره وتقديره لي عند سفري) فرساً بارعة استخدمتها بعد ذلك عشرين عاماً ولما ماتت حفظتها ، وكانت هذه الفرس تسابق الرياح في عذوها وكنت إذا خرجت للزيارة بعد الظهر أقطع بها ثلاثين أو أربعين ميلاً دون أن تتعب ، وحدث مرة أن كنت أتبع أرنبا برياً أخذ يمدو فوق الحقول حتى اندفع إلى الطريق العام حيث كانت عربة ثقل سيدتين جميلتين ، فحببت العربة عني الأرنب ، ولكن فرسي التي كانت مندفة كالبرقي حملتني معها فالتفت نفسي وجهاً لوجه أمام نافذة العربة المفتوحة ، حتى لم أجد وقتاً لرفع قبعتي - كما تقضي بذلك التقاليد - وكما أسفنت لذلك جداً الأسف !

وحدثت لي مرةً حادثةً لطيفةً ما زلتُ أذكرها إلى اليوم . وذلك أن أحدَ رفاقي صيائي ، وكنتُ لم أَرَهُ مُنْذُ سنينَ طويلةٍ قابَلَنِي ذاتَ يومٍ مُصادفةً وهو حائِدٌ إلى المدينة من سوقِ الجبوبِ التي كثيراً ما يَسْتَوِرُهَا لِأَنَّهُ وِثْرٌ طاحونةٌ عن أبيه .

ولا أُغْلِظُكُمْ تَجْهَلُونَهُ فهو «وَلَيْمٌ مِلْهُوِر» الرَّجُلُ البَدينُ . كُنَّا إِذْ ذَاكَ في سَاعَةِ النَّشِيطَةِ فلما نَزَلَ «مِلْهُوِر» من عَرَبَتِهِ أَخَذَ يَتَرَنِّحُ في مَشْيَتِهِ حَتَّى إِذَا قَاجَأَتْهُ بِالنَّحْيَةِ ولم يَكُنْ مُتَنَبِّهاً لَوْجُودِي بِسَبَبِ الْعَمَةِ صَاحَ صَيْحَةً فَرَعَ وهو يَقولُ : «مَنْ الَّذِي أَرَى أَهْوَأَ أَنْتَ الْبَارُونُ فَوْنَ مَوْنِشْهاوِرْنَ ، الَّذِي مَاتَ مُنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ؟» فَأَجَبْتُهُ بِمَحَنِي : «إِنِّي كَمَا تَرَانِي أَمَامَ عَيْنَيْكَ حَتَّى أَرْزُقُ لَمْ يُوَارِنِ التُّرابُ بَعْدُ عَنِ الْعِيُونِ .»

فَأَجَابَنِي بِقَحِيحَةٍ :

— «نعم ، وَمُنْذُ سَبْعَةِ عَشَرَ عَامًا رَأَيْتُكَ بِعَيْنِي هَاتَيْنِ جُنَّةَ هَامِدَةٍ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ وقد كُنْتُ حَاضِرًا عِنْدَ مَدْفَنِي «دِيرو» ، وَأَذْكُرُ أَنَّ كُلَّ طِفْلِ مِنَ الْحَاضِرِينَ سُمِّحَ لَهُ لِتِلْكَ النَّاسِبَةِ بِقِطْعَةٍ مِنْ فَطِيرَةِ الْكَرِيزِ مَرشُوشَةٍ بِالشُّكْرِ - إِنْ السُّوسَ بِاسْمَيْدَى الْبَارُونِ لَا بُدَّ وَقَدْ نَحَرَتْ عِظَامَكَ مُنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ .»

فَأَجَبْتُهُ : «تَهَلَّلْ يَا وَلَيْمُ لِأَوْكَدِكَ أَنِّي مَا زَلْتُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ .»

وما أنْ اتَّهَيْتُ حَتَّى لَطَمْتُهُ لَطْمَةً قَوِيَةً أَقْبَتَ بِهِ عَلَى الْأَرْضِ ؛ وَبَعْدَ ذَلِكَ

بِأَيَّامٍ كُنْتُ أَسِيرُ بِجَوَارِ الطَّاحُونَةِ ، فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا عَلَى مَقْعَدٍ يُسَلِّي نَفْسَهُ ،
فَاتَّيَدَرْتُهِ قَائِلًا :

« أَمَا زِلْتَ فِي شَكٍّ مِنْ وَجُودِي يَا وَلِيمَ أَمْ تَرَاكَ فِي حَاجَةٍ لِأَثْبَتَ لَكَ ذَلِكَ
مَرَّةً أُخْرَى . »

فَقَامَ الطَّحَّانُ مِنْ مَكَانِهِ وَهُوَ يَرْجُوْنِي أَلَّا أَفْتَلُ . نَعَمْ كَانَ مِنْ وَاجِبِي أَنْ
أَسْتَعِدِمَ هَذِهِ الْوَسِيلَةَ الْقَاسِيَةَ لِأَمْحُو مِنْ أُذْهَانِ الْكَثِيرِينَ شُكُوكَهُمْ ، وَلَأَقْنِعَهُمْ
بِأَنِّي مَلَزَلْتُ فِي عَالَمِ الْأَحْيَاءِ .

وَالْآنَ عَمُوا مَسَاءً يَا أَصْدِقَائِي وَيَا رِفَاقِي الْأَعْزَاءَ ؛ أَلَا قَاتِمُوا مَسَاءً .

الليلة السابعة عشرة

لِلْمَرَّةِ الْأُولَى يَصِلُ الْبَارُونُ إِلَى الْمَجْلِسِ مُتَأَخِّرًا ، وَمَا أَنْ اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَقَامُ حَتَّى
تَوَجَّهَ بِكَلَامِهِ إِلَى الْجَالِسِينَ ، وَقَالَ :

إِنِّي أَسْتَعِيزُكُمْ عُذْرًا ؛ أَوَّلًا لِأَنِّي وَصَلْتُ مُتَأَخِّرًا ، وَثَانِيَةً لِأَنِّي أَجْلِسُ
بَيْنَكُمْ فِي مَلَابِسِ الصَّيْدِ . وَفِي كِلْتَا الْحَالَيْنِ أُعِيرُ هَذَا الصَّدْرِي الَّذِي أَلْبَسُهُ
مَسْئُولًا فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ أَنَّهُ مَصْنُوعٌ مِنَ الْجِلْدِ ؛ وَعَلَى وَجْهِ التَّحْقِيقِ مَصْنُوعٌ مِنْ جِلْدِ
« يِكَّاس » ذَلِكَ الْكَلْبِ الَّذِي كَثِيرًا مَا قَصَصْتُ طَرَفًا مِنْ حِكَايَاتِهِ عَلَيْكُمْ .

فقد حدث في يوم من أيام الأحاد إذ خرجنا للصيد، أن أصيب هذا الحيوان المسكين بطلقة طائشة فبدلاً من أن يُصرع الأرنب الذي كان يتبعه ييكاس صرع هو نفسه . لقد رأيت هذه المفاجأة بعيني وأنا على مسافة ثلاثين خطوة ، فلما وثبت مفزوعاً من مكاني رأيت هذا الحيوان الصديق يتلوى من شدة الألم وينظر إلى بعين متوجمة : ثم إنه رفع قدمه اليسرى وكأنه يودعني ، ثم أخذ يهتز ويرتجف حتى فارق الحياة .

ليس ييكاس يا أصدقائي ويارفاق الأحباء إلا كلباً ، ولكن أي كلب هو ! وإن كثيراً منكم ليُعرفه معرفة شخصية ، لهذا لأريد أن أطيل عليكم الكلام عنه ؛ نعم ! ما هو إلا كلب ولكنّه عندي أكثر من هذا ، إذ لم أجد له مثيلاً . وقد دفعني دافع الشفقة والولاء إلى أن أحطّطه ، ولكن لا ؛ إنني أريد أن يكون أقرب إلى من ذلك مكاناً ؛ لذلك صنعت من جلده هذا الصدرى حتى أحسّ بأنني أحمل له تذكّراً كلما خرجت للصيد .

إنكم ترون كيف أن الذموم تفرق في عيني ؛ ولكن أنذرون ما حصل ؟

هنا ما خرجت للصيد للمرة الأولى وأنا أرثدى هذا الصدرى مررت بحقل من حقول البرسيم جمعت فيه جماعات من الطيور البرية ، فما إن وقعت عيناى عليها حتى بدأ قلبي يبدق دقاً عتيقاً ، وكلما تقدّمت خطوة إلى الأمام زاد هذا الخفقان

حَتَّى كَانَ عَلَى أَنْ أَفْلَ لَكِي أَسْتَجِمَّ وَحَتَّى أَسْتَرْجِعَ أَغْصَامِيِ الْمُتَقَطَّعَةَ . ثُمَّ إِنِّي سِرْتُ
بِخُطُواتٍ وَثِيْدَةٍ وَلَكِنِّ ضَرَبَاتِ قَلْبِي اشْتَدَّتْ وَتَوَالَتْ حَتَّى عَجَزْتُ عَنِ الْمَسِيرِ ،
وَعَلَى حِينٍ فَجْأَةً انْفَلَتَ زُرٌّ مِنْ أَزْرَارِ هَذَا الصَّدْرِيِّ وَانْطَلَقَ طَائِرًا إِلَى مَسَافَةٍ
خَمْسَةَ عَشَرَ قَدَمًا ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ هَبَّ مِرْبٌ مِنَ الطُّيُورِ مِنْ مَكَانِهِ ، فَكَانَ
مَنِيَّ إِلَّا أَنْ صَوَّبْتُ بُنْدُقِيَّ وَأَطْلَقْتُ النَّارَ فَسَقَطَ مِنْهَا خَمْسَةٌ ، فَجَسَّهَا رَوْضَعُهَا فِي
جَرَابِ الصَّيْدِ وَتَابَعْتُ سَيْرِي .

وَمَا إِنْ ابْتَعَذْتُ مَسَافَةً أَرْبَعِينَ خُطْوَةً حَتَّى عَادَ ذَلِكَ الْخَفْقَانُ وَهَادَتْ الْأَزْرَارُ
إِلَى الْإِنْفِلَاتِ وَالطَّيْرَانِ وَكَانَ يَحْدُثُ ذَلِكَ كُلَّمَا اقْتَرَبْتُ مِنْ صَيْدٍ جَدِيدٍ ، لَقَدْ كُنْتُ
أَحْسُ بِصَدْرِي مَأْزُومًا وَبِقَلْبِي يَكَادُ يَثْبُ مِنْ مَكَانِهِ ، وَكَانَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَنْقَطِعُ
زُرٌّ مِنْ هَذِهِ الْأَزْرَارِ ، وَلَكِنِّي بَعْدَ ذَلِكَ كُنْتُ أُصِيبُ الْهَدَفَ بَدَقَةٍ ، فَجَسَّتُ
حَوْفِي كَوْمَةً مِنَ الْإِوَرِّ الْبَرِّيِّ وَالْقَطَا وَالْأَرَانِبِ .

وَأَتَمُّ تَرَوُّنٌ أَنَّ هَذَا الصَّدْرِيَّ مَزِيَّنٌ بِصَفَتَيْنِ مِنَ الْأَزْرَارِ ، عُدَّتْهَا أَحَدَ عَشَرَ
زِرًّا لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا ثَلَاثَةٌ وَسَامِعْلُ عَلَى إِصْلَاحِهَا مِنْ جَدِيدٍ فِي الْأُسْبُوعِ الْقَادِمِ ؛
فَإِذَا تَقُولُونَ فِي وَلَا هَذَا الْكَلْبِ وَإِخْلَاصِهِ حَتَّى بَعْدَ مَوْتِهِ .. نَعَمْ إِنِّي قَدِ بَالِغٌ
رَاشِدٌ ، وَلَكِنِّ ذَكَرِي هَذَا الْكَلْبِ الْأَمِينِ الْبَارِعِ مَا قَتَلْتُ تَحْزَنُ فِي قَلْبِي مِنَ
الْحُزَنِ ؛ وَهَذَا أَرْفَعُ كَأْسِي تَمْجِيدًا لَدُنْكَ .

دعوني أقص عليكم مغامرة طريفة ! حدث منذ بضع سنين أثناء زيارتي جزيرة صقلية أن بركان « إتنا » قد ثار من جديد ، وأخذ يري باللهب والأحجار المنصهرة حوله . وكنت إذ ذاك في مدينة « قطانيا » وقد عقدت الصلحة مع جماعة من السائحين الإنجليز من رجال ونساء ، فخرجت معهم حتى وصلنا إلى مكان يدعى « كازا انكليزي » أي البيت الانجليزي حيث قضينا الليل . وفي الصباح اقترح علينا سائقو الجير أن نقوم برحلة حول البركان قبل أن يبدأ ثورانه ، ولكن بينما كانت الجماعة تنكص على أعقابها كنت في طريقي منفرداً إلى رأس الجبل حتى وصلت إلى قوّة البركان بعد ثلاث ساعات .

أخذت أطوف حول القوّة ثلاث مرات ، ولعلكم تتصورون ضخامة هذه القوّة . لقد كان منظر الأودية والبحر من هذا الارتفاع ساحراً جذاباً ، ولكن ذلك لم يشغل بالي ، إذ كنت أفكر فيما يطويه هذا البركان في جوفه ، ولم يطل بي التفكير حتى عقدت الزم على الوثوب في هذه الهوة المفتوحة !

ما كدت أفل ذلك حتى أسفت لهذه المظافة ، إذ وجدت نفسي غارقاً في بحر من العرق ، ونظرت حولي فإذا بالحمم تتناثر هنا وهناك حتى كاد يستحيل على البقاء طويلاً ، وأخذت الصخور الدائبة والأججار الملتبّهة تراكم حولي شيئاً فشيئاً حتى كدت أختفي في وسطها ؛ ولست أدري هل تكيفت فأصبحت قادراً على احتمال هذا الوحج وهذه الثيران فملبتي الناس أم أنني قدت وعي ؟



وبعدَ وقتٍ تَنَبَّهْتُ مِنْ غَفَوَتِي فوجدتُ نَفْسِي مُلقًى على الأرضِ وَحَوْلِي ضَجِيجٌ
يكادُ يَحْرِقُ الأذْنَ .

كنتُ كثيرًا ما أسمعُ خليطًا من النَّقْرِ والمُخِيطِ والصَّيَّاحِ والصُّرَاخِ ، فإن قَدْ
أدْرَتُ عَيْنِي حَتَّى وَجَدْتُ نَفْسِي فِي صُحْبَةِ «فُلْكَان» وجماعتهِ «السَّيْكُلُوب» أولئك
المالِقَةُ ذَوِي الثِّيُونِ المنْقَرِدَةِ الَّتِي تَتَوَسَّطُ جِبَاهَهُمْ .

والآن قد عَرَفْنَا مِرَّ «فُلْكَان» ذلكَ البطلِ الإلهِيِّ الَّذِي جَمَلَ مِنْ جَوْفِ
بُرْكَانٍ «إِتنا» مَصْنَعًا للحِداذَةِ ، الَّذِي أَنْكَرَ حَقِيقَةَ وُجُودِهِ أَكْثَرُ النَّاسِ مِنْ زَمَانٍ

بَعِيدٍ . نَمَّ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ مُسَافِرًا تَهَيَّأَ لَهُ الْفُرْصَةُ لِيَرَى عَجَائِبَ الدُّنْيَا ، لِهَذَا السَّبَبِ فَاضْتَقَفْتُ بِالْأَفْكَارِ حَتَّى عَمِدْتُ إِلَى أَنْ أَقُولَ شِعْرًا بَدَأْتُهُ هَكَذَا : « إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَهْوَى الْأَسْفَارَ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَرَوِيَ الْقِصَصَ .. » وَلَكِنِّي لَمْ أَسْتَرْ طَوِيلًا فِي قَرْضِ الشَّمْرِ .

وَأَنْتُمْ لَتَتَوَوَّرُونَ يَا أَصْدِقَائِي مِبلَغَ النَّهْشَةِ الَّتِي غَرَّتِ الْأَبَ فَلَكَانَ الْمَجُوزُ وَأَتْبَاعُهُ الْمَالِقَةُ عِنْدَ مَا اكْتَشَفُوا وُجُودِي يَبْنُهُمْ وَبَعْدَ أَنْ فَحَصْتَنِي عُيُونُهُمْ حَجَلَ فَلَكَانَ إِلَى صُنْدُوقِهِ وَأَخْرَجَ دُهْنًا وَرِبَاطًا وَأَقْبَلَ عَلَيَّ يَضْمُدُ جِرَاحِي وَحُرُوقِي ، وَلَا شَكَّ فِي أَنْ دَوَاءَهُ كَانَ سَاحِرًا عَجِيبًا لِأَنَّهُ مَا لَمْ يَسْجُ بِهِ جِلْدِي الْمَجْتَرَقَ حَتَّى اخْتَفَتْ آلَامِي فِي الْحَالِ ، وَلَمْ يَكُنْ عِلَاجُهُ سَاحِرًا فَجَسِبُ بَلْ إِنَّهُ ضَمَدَ الْحُرُوقَ الَّتِي أَصَابَتْ مَلَابِسِي نَفْسَهَا !

وَجَاءَ أَحَدُ صُغَارِ « السَّيْكُوب » وَأَحْضَرَ قَدْرًا مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الدَّفَاقِ حَتَّى اسْتَكْمَلْتُ نَظَاقِي ؛ كَمَا كُنْتُ مُوَضَّعَ رِجَالِي السَّيِّدَةِ « فِينُوس » زَوْجَةَ مُضْطَبِّ الْمَحْتَرَمِ وَهِيَ الَّتِي مَضَى عَلَيْهَا بَعْضُ آلَافٍ مِنَ السَّنِينَ وَمَا زَالَتْ مَحْمُودَةً بِجَمَالِهَا .

وَأَنْ أَسْأَلَ عَلَى شَيْءٍ فَذَلِكَ أَتَى لَمْ أَسْأَلْ عَنْ سَرِّ مَسْأَلَتَيْنِ : الْأُولَى مِنْ أَيْ مَصْنَعٍ مِنْ مَصَانِعِ الْأَدْوِيَةِ اسْتُخْضِرَ هَذَا الدَّوَاءُ الْعَجِيبُ الَّذِي يَشْفِي الْحُرُوقَ ، وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّ فَلَكَانَ نَفْسُهُ هُوَ الَّذِي يَمُدُّ هَذَا الدَّوَاءَ فَهِيَ عُنَاوَةُ تَرْكِيبِهِ ؛ وَالْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ تُنْخَصُّ السَّيِّدَةَ فِينُوسَ وَأَنْوَاعَ الْمَسَاحِقِ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا لِلِاحْتِفَافِ

يجمها ؛ إذ لي عمتان يمينهما الجوابُ على هذا السؤالِ ولا شكَّ أنهما يحفظانِ لي هذا الجليلَ إذا أفضيتُ لهما بسرَّ « فينوس » .

نعم لو تَسَنَّى لي أن أعرفَ حقيقةَ هذينِ الدوائِنِ لكنتُ أصبتُ من وراثتهما ثروةً عريضةً !

ولي أن أقولَ بصفةٍ ماثمةٍ إن الزوجينِ كانا « فيقينِ بي عطوفينِ عليَّ ، إلا أن « فينوس » كانت في بعضِ الأحيانِ تَحْدِجُنِي بنظرةٍ ساخرةٍ وتدعوني بالدودةِ الأرضيةِ الحفيرةِ ، وكان هذا التحقيرُ يؤلِّثني كثيراً . أما زرجُها « فلكان » فقد طافَ بي بين أرجاءِ مملكتهِ السفليةِ وراحَ يُعرفُنِي بأقسامِها وأركانها حيث « السيكلوب » ، يُطَرِّقُونَ الحديدَ ويصنَعُونَ منه صنوفَ المُتَسِجَاتِ التي نستخدمها في حياتنا اليوميةِ من المِخَارِيطِ وأدواتِ الفِلاحةِ وعُدَدِ النجارةِ ومن الأسلَاحِ والمِغْفَافِ الحديديَّةِ ومن الأسلحةِ والسيوفِ والدروعِ .

وقد أبصرتُ عشراتِ من الطُرُقِ الضيقةِ التي تَنْطَلِفُ شمالاً ويميناً والتي كانتَ تنتهي بعد خطواتٍ قليلةٍ إلى أبوابٍ مُوصَّدةٍ من الفولاذِ السميكَ ، كُتِبَ عليها بحروفٍ مُضْبِئَةٍ « إلى فيزُوف » أو « إلى هِكْلا » كما كُتِبَ على بعضها أسماءُ براكينٍ ميتةٍ ثارتَ يوماً وحدثتْ ؛ فقلُ بابٍ من هذه الأبوابِ كُتِبَ « استِراثبولي » وتحت هذا نُقِشَ بِمِائَةِ عَشْرَةِ لُحَاةٍ مُخْتَلِفَةٍ « ممنوعُ الدخولِ » .

فسألتُ فلَكانَ عَنِ المَكانِ أَقْبَى يَوصِلُ إِلَيهِ هَذا البابُ ؛ فَأَجابَنِي في هَؤُوءَ :
« إِنَّ هَذا البابَ يَوصِلُ إلى مَصنَعٍ مِنَ المَصانِعِ الكُبْرى الَّتى تَشتَهِلُ بِشَئِ
الْمُتَاجاتِ الحَديديةِ ، وَلَيسَ لَكَائِى مَن كانَ أَنْ تَقَعَ عَيناهُ على ما فيه ، لَهِذا كانَ
الدُخولُ إِلَيهِ مُحَرَّما . » ثُمَّ أَخَذَ يَتَمَتَّعُ بِكَلامِ غَيرِ وَضَحٍ تَمامَ الوُضوحِ ، يَيدُ أَتَنى
تَسَقَّطَتُ بِمَضِ كَلِماتٍ مِناها « المَصادُّ القَولَاضِيَةُ وَالْمَدافِعُ الاَتِوماتِكيَّةُ » .



وفي ذلك المساء نفسه سألت السيدة فينوس مما إذا كانت قد زارت
 «استرانبولي»، فأجابتنى قتيلاً؛ ذلك لأنَّ الدخول إليه ممنوع، وكل ما نعلمه أنَّ
 زوجهما قد أعدَّ هذا البركان لأعماله الخاصة فربَّين ما يمنعه في هذا المكان
 صفائح الرعد للأب «زيوس».

ثم إنَّ الحديث أخذ يتفرَّع بنا حتى عولتُ على أن أتهز الفرصة لأكشف
 سر هذا المصنع ولأثبت ممارزته «فينوس» وقدواتني الفرصة فعلاً في اليوم الثاني
 إذ نشب نزاع بين الشمال فشغل الأب فلكان بعضه، عند ذلك خرجت مُتَلصِّصاً
 وتسربتُ إلى ذلك الباب الذي حُجِر على الناس دخوله ففتحتُه بشيء من الجهد
 إذ لم يكن مُوصداً. وما كذتُ أفعل ذلك حتى أصبني صوت الرعد القاصف،
 وعند ما تلقتُ إلى جدران هذا الدهليز وجدتُ أنه مُعطى بلافتات مُضيئة لتحذير
 الداخلين مكتوبةً بثاني عشرة لغةً هذا نصها: «هنا مخازن المدافع الأوتوماتية
 والمصائد الفولاذية».

وأخذتُ تعاودني أفكار مُتناقضة واستولت على الخيرة، ولم أدر هل من
 العقل أن أتابع السير في هذا الدهليز الذي يضيئه برق خُلب؛ ولكن قبل أن
 أصيل إلى رأي حاسم أحسستُ يدي تحمِلني بُعْث من ياقة معطى وتهال على
 ضرباً ولم تتوقف حتى سمعتُ صوت الأب فلكان الذي طأ إذ ذاك بعد فضع
 المشاجرة وهو ينادي: «سكت سوبر كاي» ومعنى ذلك «نال كفايته» فخلعتُ

نفسى من هذا المارد ، إلا أنه دفننى إلى هوية دامية الظلام وهو يتبعنى باللمعات
صائحا : « أيها الإنسان التاكّر للجبل عقابا لك على نسيانك الفضل سأرسل
بك مرة ثانية إلى عالم الأخران الذى جئت منه ! »

وأخذت أهوى وأهوى فى ظلام لا نهاية له ، وطفقت فى هذا المبوط
ساعة أو ساعتين من الزمان ولا أشك فى أننى فقدت شعورى إبان هذه الرحلة
فلم أدر كم قضيت من الوقت وكما كانت سرعتى فى المبوط . وعلى حين فجأة
عذت إلى صوابى وأحسنت كائنى أسبح فى ماء بارد ، ولما فتحت عيني وجدت
فى بحر غمرته الشمس فانبطحت على سطح الماء الذى حملنى دون أن أستخدم فتاة
من فتون السباحة التى أجيدها .

ولكن إلى أين أنا ذاهب ؟ وفى أى اتجاه أسبح ؟ إن أحدا غيى ليُسقط
فى يده إذا ما رأى نفسه وحيدا فريدا بين الماء والسماء ، وكان الماء فوق ذلك
شديد البرودة بل كان مثلوجا . ثم إننى بعد ذلك تبينت فى الأفق جبلا من جبال
الثلج العائمة يبعد عن مكانى نحواً من خمسة أميال فاندفعت إليه وأخذت
أسبح حتى وصلت إلى حافته فتعلقت به وأخذت أنسلقه بجهد شديد حتى
وصلت إلى قمته ، فلما ألقيت بنظرى إلى الجانب الآخر اكتشفت قارباً يقف
إلى جانبه خمسة من الوطنيين بمصحبتهم رجل أبيض وممهم يكون فى بعض شئون
الصيد .

أخذتُ أصبح بأعلى صوتي لأسترعى أُنْبَاءَ هؤلاء الصَّيَّادِينَ ثم انطرحْتُ
على السفحِ المقابلِ لهم وانزلتُ بِسُرْعَةِ الرِّيحِ حَتَّى وَجَدْتُ نَفْسِي عَلَى
غَيْرِ بَعِيدٍ مِنْهُمْ، فَأَقْبَلُوا عَلَى وَحْمَلُونِي إِلَى قَارِيهِمْ فَعَرَفْتُ أَنَّ الرَّجُلَ الْأَيْضَ
هُوَ لَنْدِيَّا غَرِقَتْ سَفِينَتُهُ وَلَمْ يَنْجُ مِنْهَا أَحَدٌ سِوَاهُ، إِذْ اصْطَدَمَتْ بِصَخْرَةٍ فِي جَزِيرَةٍ
مَهْجُورَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْمُحِيطِ الْهَادِي .

وهكذا عرفتُ أَنِّي فِي الْبَحْرِ الْجَنُوبِي .

ثم إِنَّ الْحَقِيقَةَ تَكشَّفَتْ لِي : إِذْ يَكُنْ ذَلِكَ الدَّهْلِيْزُ الَّذِي مَرَقْتُ مِنْهُ إِلَّا
أَخْذُودَا أَرْضِيًّا يَشْنُو الْكَرَّةَ الْأَرْضِيَّةَ . وَكَمْ أَنَا آسِيفٌ لِأَنِّي لَمْ أَتَبَيَّنْ مَعَالِمَ
الطَّرِيقِ الَّذِي مَرَرْتُ فِيهِ .



ولذا حدث أن أحداً منكم وثب في قُوْمة بُركانٍ «إتنا» واندفع في ذلك
الأخْذودِ الذي يمر بمركز الكرة الأرضية، فإني أنصحه أن يدقق النظرَ
حواليه - إذا لم يُصب بإغماء أو بفقد شعوره - لأنه سوف يستنبح بأزوع
المشاهد التي لا مثيل لها، والتي مع الأسف لم أستطع أن أجلّو غرائبها بنفسى .
والآن أنعموا مساهمتها الأصيلة !

الليلة السابعة عشرة

بينما كنا في طريق عودتنا إلى الجزيرة المجهولة في المحيط الجنوبي والتي حدثتكم عنها، قصّ على رفيق الهولندي شيتا من غرايها . هذه الجزيرة يدعوها أهلها « تيهات لبياتي » ويحكمها أمير طيب القلب إلا من عادة غريبة هي حُبّه الشديد لأكل لحم الأجانب مشويًا بعد أن يُسَمِّهم شهرًا كاملًا يعيشون خلاله على فاكهة المحيط الجنوبي وعلى صنوف من اللوز . وكان ذلك الهولندي أحد ضحاياه فبقى في هذه الجزيرة لا يُطعم إلا الفاكهة واللوز حتى إذا قرب موعدُ شيءٍ وأكله حدث أن أمطرت السماء يومًا، فَنَسَاقَطَ على رأسه نوعٌ من الفطائر الصغيرة التي أكل منها حتى شبع، فلما سمع الأمير بذلك غضب غضبًا شديدًا وأمر أن يُسَمَّن « يوهان » فأن وزِل « من جديد شهرًا كاملًا حتى يحين موعدُ اقتراسه . فلما سمعتُ ذلك منه قلتُ له متحكمًا :

— « تمهل يا يوهان، إذ لست بالذي يُصدَّق كلامك، فابحث عن غيري قديمًا من بأن السماء تُمطرُ فطيرًا . فأتانا - إذا أردت أن تعلم - البارون المشهور فون مونشهاوزن الذي طوّف حول الأرض ؛ ومع ذلك لم أر أن السماء في أي مكان تُمطرُ فطيرًا . » فأجابني الهولندي مؤكّدًا : « ولكننا في « تيهات لبياتي » كثيرًا ما رأينا

السماء تُمطرُ فطيراً لا سيما في الصيف، فعلى رؤوس جبال هذه الجزيرة ينبت نوعٌ من أشجار الخبز له نحرٌ يشبه في لونه وطعمه الفطائر المحشوة باللحم، فإذا هبت ريحٌ مائيةٌ حملت هذه الثمار وشرتها على أرض الوادي .

وقد تحققتُ هذا بنفسى فوجدتُ أن الهولنديّ لم يمتد الواقع، وأن علماء النبات ما زالوا يجهلون هذا النوع من شجر الخبز الذي يُطلقون عليه إلى اليوم اسم «أرتوكازيس إجنوتس» وهو الاسم العام لأشجار الخبز .

وبينما كنا في هذا الحديث اقتربنا من شاطئ الجزيرة حيث أبصرتُ الأمير جالساً وحواله وُزراؤه، فما إن نزلنا إلى الشاطئ حتى قدمنى الهولنديّ إلى سموه بعد أن منحنى ماشاء من الألقاب؛ وأجاب الأمير على ذلك بلفظة رقيقة ثم إنه همس إلى وزيره الأول وقال: «فلتبدأ توابلغفه وتسبينه» . نعم باله من استقبال لطيف! وما إن خطوتُ بضع أقدام حتى حدث أمرٌ عجيب؛ فما كان يدورُ بخليى أن شهرتى التى طبقتُ آفاق العالم المتمدّن قد وصلت إلى هذه الجزيرة التى ما زالت غير معروفة عند الجغرافيين؛ وذلك أننى بينما كنتُ فى طريقى إلى قصر الأمير - الذى هو فى الحقيقة كوخٌ قطريٌّ - إذا بالأشجار التى تُحيطُ به تحنى رؤوسها، وكأنّها تقولُ: «أهلاً بك يا صاحب السعادة فون مونشهاوزن!»

لقد كان لذلك أبلغ الأثر عند الأمير فهمس فى أذن وزيره قائلاً: «لا تتجبل بتسبين مونشهاوزن» ولما فسر لي الهولنديّ معنى هذا الهمس سرى عني ..

وبعد أن سِرْنَا مائةَ خَطْوَةٍ من قصرِ الأميرِ مرَرْنَا بِصَفَّتَيْنِ مِنَ الأشجارِ عِذَّتْهَا
اثنتا عشرةَ شجرةً مَحَلَّةً بَنُوْعٍ مِنَ الفاكهةِ مُسْتَدِيرٍ فِي حِجْمِ رَأْسِ الطُّفْلِ ، وَمِنْ
أَغْصَانِ الشَّجَرَاتِ الثَّلَاثِ الْكُبْرَى تَدَلَّى ثَلَاثُ رِجَالٍ مُعَلِّقِينَ مِنْ أَعْقَابِهِمْ ، وَكَانَ
مَشْهَدُهُمْ عَجِيبًا . وَلَمَّا سَأَلْتُ عَنْ حَقِيقَتِهِمْ وَسَبَبِ عِقَابِهِمْ هَذَا الْعِقَابَ الصَّارِمَ ،
أَخْبَرَنِي « يُوْهَانَ فَاَن وَيَزَل » بِأَن هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ كَانُوا قَدْ رَحَلُوا مِنَ الْجَزِيرَةِ
لِلسَّيَاحَةِ وَالزَّهَةِ فَلَمَّا عَادُوا إِلَى جَزِيرَتِهِمْ رَاحُوا يَصِفُونَ مِنَ الْأَمَاكِنِ وَالْبِلَادِ
مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ ، وَيَقْصُونَ مِنَ الرِّوَايَاتِ مَا لَمْ يُصَدِّقْهُ أَحَدٌ ، لِهَذَا تَزَلُّ بِهِمْ هَذَا الْجَزَاءُ .
وَلَوْ أَنَّ هَذَا الْعِقَابَ صَارَ شَدِيدًا ، وَلَكِنْ أُوْتِكَ السَّامِعِينَ الَّذِينَ لَا يَلْتَمُونَ
جَانِبَ الْحَقِيقَةِ فِي رِوَايَاتِهِمْ يَسْتَحِقُّونَ مِثْلَهُ وَزِيَادَةً . لِهَذَا كَمْ أَتَمَنَّى أَنْ يُعَاقِبَ الْكَذَّابُونَ
بِشَنْقِهِمْ حَتَّى تَسْوَدَّ جُلُودُهُمْ !

وَالْحَقُّ يُقَالُ إِنِّي لَمْ أَمْكُثُ طَوِيلًا فِي « تِنِهَاتِ لِيِيَانِي » لِأَتَحَقَّقَ صِحَّةَ
رِوَايَاتِهِمْ ، وَفَضْلًا عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّ فِكْرَةَ الْحَيَاةِ عَلَى الْفَاكِهَةِ وَالْجُوزِ وَإِعْدَادِ نَفْسِي
لِوَلِيَّةِ شِوَاءٍ فَاخِرَةٍ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الَّذِي يَسْتَهْوِي النَّفْسَ ، لِفَدَاكَ مَا وَاتَّخَذْتُ الْقُرْصَةَ فِي
مَسَافِلِكَ الْيَوْمِ نَفْسِي حَتَّى خَلَوْتُ « يُوْهَانَ فَاَن وَيَزَل » وَأَفْصَحْتُ لَهُ عَنْ عَزْمِي عَلَى
الْهَرَبِ مِنَ الْجَزِيرَةِ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ ، فَطَفَعَ وَجْهُهُ غَبْطَةً وَسُرُورًا ؛ وَلَكِنْ
سُرْعَانِ مَا أَفْضَى لِي بِخَيْتَةِ أَفْكَارِهِ فَذَكَرَ لِي وَالْأَمْسَى عِلَا نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ
أَيَّنَ مَكَانَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ مِنَ الْمُحِيطِ فَهِيَ لَمْ تُكْتَشَفْ بَعْدُ ، لِهَذَا لَيْسَ لَهَا مَكَانٌ عَلَى

الخرائط الجغرافية . وعلى ذلك فن المستحيل أن نعرف الاتجاه الذي يوصلنا إلى أوروبا إذا حانت لنا فرصة الهرب .

أما أنا فلم أحاول أن أعترض عليه ، إذ أنه سيأتني عندي أن نهرب أو نشرق ما دمتنا لا نعرف إلى أين نذهب ، وكل ما نرجوه أن يواتينا الحظ فنقع على أهل بلو من المتمدنين يدثوننا على الطريق الذي نسلكه . ثم أتني وجدت من الضروري أن تبني قارباً ننحته من جذوع الأشجار ؛ وهذا يتطلب أن نعرف صنوف الأخشاب التي تنبت في الجزيرة والتي تصلح لهذه المهمة ؛ ولم يكن الهولندي صاحب معرفة بفن التجارة وكل ما دلني عليه أن الأشجار التي شق عليها الكذابون الثلاثة ذات عمر أشبه شيء باليقطين الأجوف الذي إذا ما جففت الشمس أصبح كالبالون رقة وخفة فتطيره الرياح في الفضاء .

ثم طرأت علي فكرة قابليها الهولندي باعتباط وفرح إذ اتفقنا على أن نتظر جفاف هذه الثمار بعد أيام ، فنصنع منها عقداً نطير به . وفي أثناء ذلك أعندنا قدر كافياً من الطعام لنحمله سراً في جيوبنا ، حتى إذا جاء الموعد ربطت من هذه البقايا الجافة نحو ثمانية أو عشرة حوّل حزامي ؛ وصنع « يوهان » مثل ما صنعت ؛ فلما هبت الريح الدافئة ارتفعنا في الهواء ودفعتنا إلى البحر ، ولكننا سرمان ما افترقنا . ولما تلقى خلقى ألقى « يوهان » وقد أخذ يهبط شيئاً فشيئاً إلى سطح الماء حيث التقطته سفينة مارة . وقد علمت بعد ذلك

أنه ماذ إلى بلدِهِ وعَيْنَا أَمِينَا لَمُتَحَفٍ مِنْ مَتَاحِفِ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ فِي مَدِينَةِ
«أَمَسْتَرْدَام» أَوْ «لِيدَن» .

أَمَّا أَنَا وَكَانَتْ رِحْلَتِي أَشَدَّ وَأَشَقَّ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ يَقِرَّ لِي رَأْيٌ عَلَى الْهَبُوطِ فِي
عَرْضِ الْبَحْرِ أَوْ التَّعَلُّقِ فِي الْفَضَاءِ تَتَقَادَفُنِي الْأَهْوَاءُ ، إِذْ أُنْ إِعْصَارًا هَبَّ بَعْدَ ذَلِكَ
فَحَمَلَنِي عَلَى مَتْنِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ لَيَالٍ وَهُوَ يَدُورُ بِي بِحَرَكَةِ لَوْلِيَّةٍ ، فَكَانَ
مِنْ حُسْنِ حِطِّي أَنَّ الطَّعَامَ الَّذِي خَرَّتُهُ فِي جُيُوبِي أَتَقَدَّنِي مِنَ الْمَوْتِ ، وَلَكِنْ اتَّقَيْتُ
بِي الْأَمْرُ إِلَى أَنْ فَقَدْتُ وَغِي ، فَوَجَدْتُ نَفْسِي بَعْدَ ذَلِكَ مَطْرُوحًا عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ
فَأَخَذْتُ أَسْبِجُ حَتَّى كَلَّتْ ذِرَامَايَ ، وَبَعْدَ أَنْ قَطَعْتُ نَحْوًا مِنْ سَبْعَةِ عَشَرَ مِيلًا
بِجَهْرِيَّا أَتَقَدَّنِي إِحْدَى السَّفِينِ .

كَانَتْ هَذِهِ السَّفِينَةُ فَرِطَاقَةً تَرْكِيَّةً . وَفِي اللَّيْلَةِ الْأُولَى دَمَانِي الْقِبْطَانُ إِلَى
غُرْفَتِهِ الَّتِي اجْتَمَعَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الضُّبَّاطِ وَالْبَحَّارَةِ وَسَأَلَنِي عَنْ أَمْرِي فَقَصَصْتُ
عَلَيْهِ مَا شَاهَدْتُ فِي جَزِيرَةِ «تِيهَات لِيْنِيَانِي» وَرَوَيْتُ خَبَرَ الْإِعْصَارِ الَّذِي حَمَلَنِي
فَأَحْسَسْتُ أَنَّ السَّامِعِينَ بَدَأُوا يَشْكُونُ فِي أَمْرِي مَعَ أَنَّ مَارُوتَهُ كَانَ خَالِيًا مِنْ
التَّزْوِيقِ وَلَمْ أَزِدْ أَكْثَرَ مِمَّا رَوَيْتُهُ لَكُمْ ؛ فَلَمَّا اتَّهَيْتُ تَلَقَّتْ الْقِبْطَانُ إِلَى جَارِهِ
وَعَمَسَ لَهُ : «أَخْلَفْتُ لَكَ بِاسْمِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ لَا وُجُودَ لِمِثْلِ هَذِهِ الْعَاصِفَةِ» .

وَلَكِنْ مَا أَسْرَعَ أَنْ حُلَّ الْعِقَابُ ! إِذْ لَمْ نَكُنْ نَتَسَرَّبُ إِلَى قَرَاتِنَا حَتَّى
هَبَّتْ رِيحٌ جَنُوبِيَّةٌ وَأَخَذَتِ السَّفِينَةُ تَتَارَجَعُ حَتَّى اسْتَحَالَ عَلَيْنَا النَّوْمُ ، ثُمَّ أَخَذَتْ

تتقاذفها الأمواج يَمَنَةً وَيَسْرَةً . وكأنها سِكِّيرٌ يترنح من قِبلِ الشرابِ . وكانت
الرياحُ الغربيةُ والشرقيةُ تتناوبُ المهبوب كلَّ ثلاثِ دقائق بالضبط حتى أصبحت
الحياةُ على السفينةِ جحياً لا يُطاق .

وعندما انبجج الصباحُ هبَّتْ رِيحٌ شماليةٌ عاتيةٌ وكان من شدتها أن دكت
الساريةَ الكبرى فسقطتْ على يَدِ البصلةِ فحطمتْه تحطياً ، فأصبحت السفينةُ
وقد تحطمتْ بُصلتها تضربُ في هذه البحارِ الواسعةِ دون هُدًى ، ومثلها في ذلك
مثلُ رجلٍ غريبٍ كُتِمَ عَيْنَاهُ يَقِفُ بَيْنَ مُفْتَرِقِ الطُرُقِ دون دليلٍ يقوده وهو
لا يعرفُ السبيلَ إلى الهدفِ الذي يسعى إليه ؛ ثم غمرت السماءُ حلقةً عميقةً فكنا
نشقُّ عِبابَ الماءِ وكأنَّ سفينتنا حبيسةٌ في جُوالٍ مَقْغُولٍ .

ومضينا على هذا النُحُوْ شهرًا كاملاً ؛ أمّا في النهارِ فكان الضوءُ كوقتِ
المشيّةِ ، أمّا في اللَّيْلِ فكان الظلامُ مُطْبِقاً ، أمّا الشمسُ والقمرُ والنجومُ فلم نَرَهَا
وَجْهاً خِلَالَ ثَلَاثَةِ عَشَرَ أُسْبُوعاً ؛ وأخذتِ الرِّيحُ تعيثُ بِسَارِيَّاتِ السفينةِ واحدةً
إِثْرَ واحدةٍ ، فكانت تَحْمِلُها على رأسِ الأمواجِ فتبدو وكأنها على قِوّةِ جِبَلٍ ثم تهبطُ
بها حتى تكاد تُغمرُها . وإمّنه من النادرِ أن تنجو من أهوالِ هذا البحرِ فِرَاطَةً
قَدْ دُكَّتْ سَوَارِيها وتَحَطَّمتْ بُصلتها ورُكِبَ على جنباتها سبعمون مِذْفاً وجمَلتْ
على ظهْرِها أربعمائة رجلٍ أو خمسمائة !

وفي التَّهْيَاةِ هذاتِ العاصفةُ ولكن البحرَ ما قَيَّ هاجِجاً بمضِ الشَّيْءِ فَصَلَّ

حطام السفينة على متنه وليسَ فينا مَنْ يَعْرِفُ إلى أين المصيرُ . وأخذتِ المؤونة في النفادِ حتَّى إذا أَتَيْنا على آخرها أَشْرَقَتِ الشمسُ للمرة الأولى وهبَّت ربيع دافئة رقيقة حملتُ مهبِراتٍ زكية عَيْقة تَفْتَحُ لها الأنوفُ فتذَكَّرُنا رائحة البرِّقال، وعلى حينِ فجأةٍ لَمَسْتُ في خاطري ذِكْرِي قديعةً فقلتُ لتفسي: إن هذه الرائحة لتعودُ بي إلى أيامِ شِواءِ السِّقَافيدِ وسِجَارِ الهاقانا ! فإِذَا انتهيتُ حتَّى همستُ مئاتٌ من الأصواتِ مُرَدِّدةً ! نَعَمْ الشِواءُ والسِجَارُ، وهكذا قضينا أسبوعاً كاملاً نعيشُ على هذه الرائحةِ المغذية المشبعة .

فلما كانَ اليومُ الثامنُ اقترَبنا من الشاطئِ وكم كانت دهشتنا عندما رأينا أننا نهيطُ مدينة «هاقانا» نفسها في الطرف الشمالي لجزيرة «كوبا» نعم لقد صدَّقَ حَدْسِي إِذْ كانت تلك الرائحة من عبقِ السِجَارِ فعلاً .

وفي اليومِ الثاني نزلتُ إلى الشاطئِ وجلسْتُ أُدخِّنُ هذا السِجَارَ الفاخرَ بينَ جماعةٍ من زُرَّاعِ التبغِ أَفْصَحُ عليهم طرقاً من مُغامراتي ومِ يَنْ مُصدِّقٍ ومكذِّبٍ، ففهم مَنْ كانَ يَضْحَكُ، وفهم مَنْ كانَ يتساءلُ، ومنهم مَنْ كانَ يُعْطِ شمره بأصابمه وقد علَّكتهُ الدهشةُ واستحوذتِ عليه الغرابةُ ولكن لم يَطلْ مقامِي في هذه المدينة إِذْ وجدتُ في القلَّةِ نفسها سفينةً أَقْلَعَتْ بها إلى اوربا . والآنَ أترككم يا أَصْدِقائِي وبارِفاتِي الأعزاءَ وأشكرُكم لجميلِ إصْغائِكُمْ لحديثي، وأرجو لكم ليلةً سعيدةً .

الليلة الثامنة عشرة

طلب مني صديقنا مراقب الغابات أن أفصح إليه بحقيقة تلك المهمة التي قمت بها منذُ بضع سنين في مدينة «ويزل»، وفي هذه الليلة سأروي لكم خبرها .
أريد أن أنوه لكم بادى ذي بدء بأن هذه القصة طويلة لا يتسع لروايتها المكان والزمان، كما أريد أن أنبه أذهانكم إلى أن العالم ما بقي إلى اليوم مجهول هذا السر، لهذا أستمحكم عُذراً إذا طلبتُ منكم أن تمتنعوا عن إفشاء هذا السر لأحد من الناس .

جرت حوادث هذه الحكاية منذُ بضع سنين، ولا شك في أن الحكومة تسوءها إشاعة هذا الخبر خوفاً من أن تتولاه الصحافة بالتهويل والمبالاة . وكلُّ ما هنالك أن القيادة العسكرية في «ويزل» كلّفتني بمهمة لم أعرف حقيقتها تماماً عندما تسلمتُ رسالة القيادة المهمة التي تذكرُ فيها أن مدافع الحصن هناك قد فشلت بها دودة الحديد !

ولأنه ليندو على أعينكم يا أصدقائي ما يدل على أنكم في حيرة ودهشة مما أقول : أنسألونني ما هي دودة الحديد هذه ؟ فأقرر لكم أنني لم أسمع عنها قبل ذلك اليوم . ولأنني ما زلتُ أعلم عنها القليل !

فلما وصلتُ إلى «ويزل» وجدتُ قائدَ الحصنِ في انتظارى وفي رِفْقته ضابطُ المدفعيةِ وغيرُهُ من الرجالِ العسكريينَ ، وكانت وجوههم تُلبّي بما هم فيه من حيرةٍ وتفكيرٍ شديدٍ ؛ ومن ثمَّ انطلقنا إلى القلعةِ حيثُ وجدنا طيبَ العسكرِ في انتظارنا . فلما سألتُ عن الطُروفِ وعن الأسبابِ التي أدت إلى هذه الفاجعةِ لم يُجب القائدُ إلا بهزًّا كئيفه ، ثم همسَ الضابطُ في أذني قائلاً : « لا ضرورةَ للكلامِ وإعادةِ الحديثِ فسوفَ ترى بعينيك » ، فلما وصلنا إلى الحصنِ تخلفَ القائدُ ومِرْنَا في سِرْدَابٍ مُظلمٍ - وكُنَّا خمسةً - يحملُ كل واحدنا مصباحاً حتى إذا هَبَطْنَا إلى فناء سَفْلِي وجدنا نحواً من سبعينَ مِذْقاً مصفوفةً الواحد منها إلى جوارِ الآخرِ .

ففتَحَ ضابطُ المدفعيةِ فوهةً ، وقال بصوت أجش : « ها هي ذى ضحايا دودةِ الحديدِ » . ولما اقتربنا من هذه الأجسامِ الحديديةِ شاهدتُ في ضوءِ المصباحِ أنَّ دُمعةً تترقرقُ في عينِ كلِّ واحدٍ منهم .

فسألتُ الضابطَ عن عددِ هذه المدافعِ المصابةِ ، فذكر أنها كانت إلى الأمسِ ثلاثة وستينَ وزادتْ في يوميناهنا ثمانيةً أخرى فأصبحَ عددُ ما أُصيبَ من المدافعِ إلى اليومِ أحدًا وسبعينَ مِذْقاً . فأنحَيتُ قليلاً لأبصرَ مبلغَ فتكِ الدودةِ بالحديدِ ، ولإني أوكدُ لكم يا سادتي أنَّ هزةً عنيفةً شَمَلَتْنِي فأخسستُ بالدمِ . يتدفقُ في عروقي ؛ أتم تسألونني ماذا رأيْتُ ؟

لقد رأيتُ هذه الأجسام الحديدية وقد نخرتها الديدانُ ومن بينها ما كانت إصابته بالغة فانتشرت الثقوبُ في أكثر أجزائه حتى أصبح كالنفاحة المنقورة، وبعضها قد فتكت به الديدانُ فتكا ذريعا حتى أصبح كالنم، فكانت الثقوبُ يحاور بعضها بعضا فأصبح منظرُ بعض هذه المدافع كالسفنجة من حديد وإذا نقرَ حدَّ عليها بمطرقةٍ فإنها كانت تنساقطُ ترابا أسود.

لقد أخرستُ هذا المنظرُ في بادئ الأمر ولما سألتُ عن تاريخ هذه الفاجعة علمتُ أن أولَ ظهورِ هذه الديدانِ جرى منذ أربعة أسابيع وتوالى بعد ذلك فتكُ الديدانِ وانتشروا يوما بعد يوم، ومع ذلك فلم يتسكن أحدٌ من أن يرى الدودة مصدرَ هذه الكوارث. فأخذتُ أفكرُ وأقلبُ الرأي فيما أنا مُقدمٌ عليه وفي العلاج الذي يصلحُ للقضاء على هذه الحشرة.

ومن العجيب أن أحدا لم يفكرْ حتى ذلك الحين في القضاء على مصدرِ هذه النكبة! فقلل المصيبة قد أعجزت أهل «ويزل» عن التفكير أو عن القيام بأية محاولة للقضاء على دودة الحديد هذه. وكان أولُ ما فكرتُ فيه أن أقضى على العدوى بالنار. وعند ما عرضتُ رأيي على قائد الحامية استحسن الفكرة وأمر ببناء فرن كأفرانِ صهر الحديد قَمَّ إعدادُ ذلك على وجه من السرعة خلال ثلاثة أيام وفي أثناء ذلك انتقلت العدوى إلى أحد عشر مدفعا وبذلك أصبحت جملة الإصابات اثنتين وثمانين.

فلما تَأَجَّجَتْ نيرانُ القُرْنِ وضعنا فيها على سَبِيلِ التَّجَرُّبَةِ عِشْرِينَ أُتُوبَةً حَدِيدِيَّةً مِنْ بَيْنِ الَّتِي نَحَرَتْهَا الدِّيدَانُ وَاتَّخَذَتْ عَشْرَةَ أُخْرَى سَلِيمَةً ، وَرَأَيْتُ أَنَّ ثَبَقِي هَذِهِ جَمِيعًا يَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ وَبَعْدَهَا تُنْقَلُ إِلَى حَوْضٍ كَبِيرٍ خُلِطَ مَائُهُ بِغَازِ الْكُلُورِ وَهُنَاكَ تَبَقِي مَمْنُورَةً عِثَانِيَّةً أَيَّامٍ أُخْرَى .

وَفِي خِلَالِ ذَلِكَ كُلِّهِ كُنْتُ مَوْضِعَ احْتِرَامِ رِجَالِ الْحَامِيَّةِ وَلَمْ كِبَارِهِمْ فَكَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَيَّ نَظَرَتِهِمْ إِلَى الصِّدِيقِ الْمُتَعَذِّدِ وَرَاحُوا يَدْعُونَنِي بِطَيْبِ الْمَدَافِعِ ؛ فَلَمْ يَنْقُصْ يَوْمٌ دُونَ أَنْ يَمْجُرَى عَرْضُ عَسْكَرِي فِي الْقَلْعَةِ ، وَلَا يُعْرُ مَسَاهِدُونَ وَلِهِيَ فَاحِرَةٌ ابْتِهَاجِي ، وَبَيْنَمَا كُنَّا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ كَانَتْ الْعَدُوُّ تَرْدَادُ اتِّشَارًا فَاصِيبَ إِبَّانَ ذَلِكَ أَحَدٌ وَخَمْسُونَ مِدْفَعًا آخَرَ فَأَضَحَّتْ جَمَلَةُ الضَّحَايَا مِائَةً وَثَلَاثَةً وَثَلَاثِينَ مِدْفَعًا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَكَانَتْ الْآمَالُ مَعْقُودَةً بِنَجَاحِ الْمِلَاحِ الَّذِي بَدَأَتْهُ .

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ التَّاسِعُ أَفْرَعْنَا الْحَوْضَ مِنَ الْمَاءِ فَوَجَدْنَا أَنَّ الْأُنَايِبَ الْحَدِيدِيَّةَ قَدْ غَطَّتْهَا طَبَقَةٌ سَمِيكَةٌ مِنَ الصَّدَأِ وَلَكِنْ عِنْدَمَا اقْتَرَبْتُ مِنْهَا أَصَابَنِي الدُّعْرُ ، إِذْ وَجَدْتُ أَنَّ الثَّقُوبَ قَدْ شَاعَتْ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ ذِي قَبْلٍ ، وَأَصِيبَتْ بِالْعَدُوِّ كَذَلِكَ الْمَدَافِعُ السَّايِمَةُ فَبَلَعْتُ جَمَلَةَ الضَّحَايَا حَتَّى ذَلِكَ الْيَوْمِ مِائَةً وَخَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ مِدْفَعًا .
أَرَأَيْتُمْ تَبْتَسِمُونَ سُخْرِيَّةً يَا أَصْدِقَائِي ! وَلَكِنْ لَيْسَ فِي هَذِهِ انْقِصَافٌ مَا يَدْعُو إِلَى الْاِبْتِسَامِ ! لَقَدْ قَضَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ أَرْقًا أَقْلَبُ الرَّأْيَ عَلَى كُلِّ وَجْهِ ، وَلَكِنْ

لكل شيء نهاية، وكذلك الحال في تلك الليلة، فما إن أقبل الصباح، وما إن أرسلت الشمس شعاعها الأول حتى انتفضت من مرقدي وأنا أردد - وكأني أكلم عدوي المجهول: « لقد غالبت أيتها الدودة النار والماء، فلم يبق إلا أن أحاربك بسم أرسله إلى جوفك... ١٠ »

وما أسرع أن ارتديت ملابس العسكرية وهرولت إلى غرفة القائد الذي كان في تلك الساعة يُمارع الكابوس، فأيقظته وجلست إلى جانبه أشرح له فكرتي الجديدة التي قابلها باعتبار كبير؛ فأمر بنفخ البوق فتجمع الرجال على نداءه فقسّمهم جماعتين أرسل نصفهم لجمع « عش الغراب » وهونات برئ سام، أما النصف الآخر من الجنود فراحوا يساعدون صانع النحاس في تجهيز قدر نحاسية ضخمة في حجم فتحة الفرن.

فلما أقبل المساء عاد الرجال يحملون السلال المليئة بـ « عش الغراب » وكانت النار متأججة تحت القدر النحاسية التي مليء نصفها بالزيت، فلما غلى الزيت ألقينا فيه بمئات الأبطال من عش الغراب وتركنا النار إلى الصباح لتسوي هذه العجينة السامة. ولا أريد أن أطيل عليكم الوصف والكلام، إذ كل ما هنالك أننا وصّنا الزيت في حوض كبير ومن ثم ألقيناه بمائة وخمسين وأربعين أنبوبة حديدية.

أما التوم فلم يطرق عيني تلك الليلة أبدا فلما انبلج الصباح أسرع إلى ذلك الحوض فألقيت مئات من الديدان الصغيرة ساجدة على وجه الزيت الذي

بدا كالحساء السميكة. وكانت هذه الديدان كالخيط الرفيعة في قدر البوصة خضراء اللون لامعة تملُّ حيناً إلى الصفرة وحيناً إلى الزرقة، فأنحيتُ ورفعتُ اثنتين منها فلم يُداخلني الشكُّ في أنهما بقيّة من بقايا تلك الحشرة التي فتك بها السمّ، فلما استقبلنا الهواء تفتتتا. ثم إن عيني انحرفتُ بسرة فوجدتُ عند حافة الحوض دودتين تنبضُ فيهما الحياةُ وكان طولُ الواحدة منهما ربعَ قدم وقد انتصبتا ومالت الواحدة منهما على الأخرى وكأنّهما تمانى آلاماً مُبرّحة، وبين القينة والقينة كانت تبرّزُ منهما قرونٌ شبيهة بالخيط ثم سرعان ما تختفي.

وما إن زالت دهشتي حتّى اقتربتُ منهما وفتحتُ كفيّ لأقبضَ عليهما، فحدث في تلك اللحظة أن أقبل جماعة من رجال الحامية وهم يتحدثون بصوتٍ مُزعجٍ، فإني كان من الدودتين إلّا أن وثبتتُ في الهواء وألقينا بنفسيهما في حوض الزيت.

حدث كلُّ هذا أمام عيني ولم أجِدْ فرصة للحيولة دون ذلك. ثم ذكرتُ للقائد ما شاهدتُ فأمرَ بدوره جماعة من رجاله وأفرغوا هذا المزيج السامّ، فلما نصب الحوضُ لم نجد بقايا لهذه الحشرات، فقد ماتت وهلكت وتخلّلت أجسادها. عند ذلك رُفمتُ الأسطوانة الحديدية من مكانها وجُفِّفتْ وعُرضت للاختبار، ووُجدَ بعد ذلك أن المدوّ قد باء بالهزيمة وأن الإصابات قد وقعت عند هذا الحد، ولكن لم يُشاهد أثر واحدٍ لديدان الحديد؛ أما هذا الدواء الذي ابتكرته فقد ثبت أنه علاجٌ ناجعٌ قاطعٌ لأمراض الحديد، وأنه يقضى على ديدان الحديد قضاءً مُبرّماً.



وقد مَنَحَتِي النُّوْلَةُ نِصْفَ مِليونٍ مِنَ التَّالِاتِ^(١)، وَلَكِنِّي رَفَضْتُ النُّعْهَ
 كَمَا مَنَحْتِي وَسَامًا سَامِيًّا فَاعْتَذَرْتُ، إِذْ أَتَيْ لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْتَعِيدَ الْكَلَامَ مِنْ
 اللَّيْدَانِ الْحَدِيدِيَّةِ وَعَنْ وَسَائِلِ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا، وَكُلُّ مَا يُمْكِنُ أَنْ أَقُولَهُ هُوَ أَنَّكُمْ
 تَلَاخِظُونَ أَنْ أُسْطَوَانَا مِنَ الْمُدَافِعِ الَّتِي تُصَنِّعُ مِنْ ذَلِكَ التَّارِيخِ هِيَ مِنْ مَزِيَجِ نَحَاسَتِي
 وَهُوَ الْمَعْدَنُ الَّذِي تُصَنِّعُ مِنْهُ الْأَجْرَاسُ؛ وَذَلِكَ خَوْفًا مِنْ أَنْ تُحْتَرَمَ الدُّوْدَةُ الْحَدِيدِيَّةُ
 وَيَحْسُنُ بِي أَنْ أَذْكُرَ كَمْ بَانَ تِلْكَ الْمُدَافِعِ الَّتِي فَتَكَبَّتْ بِهَا السُّودَةُ وَأَصْبَحَتْ
 كَالْإِسْفَنْجَةِ قَدْ طُرِحَتْ جَانِبًا. وَكَانَ رِجَالُ الْمَدْفِيعَةِ يَقَطِّعُونَ مِنْهَا قِطْعًا لَصِقِلَ
 الْمُدَافِعِ وَتَلْمِيحًا. وَقَدْ أُرْسِلَ فِي طَلَبِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَلَكِنْ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَجِدْ أَمْرًا
 فِي كِتَابِ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ لِلدُّوْدَةِ الْحَدِيدِ، وَلَوْلَا أَنِّي شَاهَدْتُهَا بِعَيْنِي رَأْسِي وَرَأَيْتُهَا
 بِنَفْسِي لَشَكَّكْتُ بِدَوْرِي فِي الْأَمْرِ. نَعَمْ إِنْ الْعُلَمَاءُ لَا يَعْرِفُونَ كُلَّ شَيْءٍ!

(١) التال عملة ألمانية قديمة قيمتها نحو خمسة وعشرين قرشا .

الليلة السابعة عشرة

لعلّ الشك بدأ يساوركم في مدى معرفة العلماء بالأسرار الطبيعية! وإني لأزوي لكم هذه الليلة شيئاً عن البرد القارس مُعْتَمِداً في ذلك على مُشاهدات شخصية يجهل أمرها العلماء أنفسهم .

رَوَى لي صديق لا أشك في صحته روايته أنه كان في رحلة إلى البحر المتجمّد الشمالي، وكان البرد شديداً قارساً حتّى إنّ الشموع إذا وُضِعَتْ في مكانٍ على ظهر السفينة، فأُسْرِعَ أَنْ تَنْطِنَ مع أنّ الهواء ساكن لا يتحرك بل يصبح من المستحيل أن توقد ثانية، وذلك لأنّ الشّع أو الدهن الذي تُعْرَسُ فيه القيلة تُرْعَان ما يتجمّد والواقع أنّي لم أشاهد هذه الظاهرة بنفسى وكنتُ من المحتمل أن أشكّ في صحة روايتها لولا أنّي شاهدتُ أثناء مقامي في روسيا حوادث مشابهة .

إنّه من السهل اليسور أن يهزّ الإنسان رأسه، ولا يصدّق ما يقال له لأنّ ما يقال قد يبدو مستحيلاً، ولكنّ المثل اللاتيني يقول : «إن تجارب الإنسان لا حدّ لها» .

حدث ذات مرّة أن كنتُ في رحلة اصيّد الدببة وقد كان البرد شديداً للغاية حتّى أنّي كنتُ كلّما أطلقتُ بندقيتي كانت الرصاصَةُ تفتّتُ إرباً وهذا

ما حدث بالفعل عند ما أصبْتُ دُبَّةً وقضيتُ عليها ؛ ولكني ما كدتُ أفعلُ ذلك وقبل أن أبحثَ في جُيوبِي عن رصاصةٍ أخرى ، حتى سمعتُ هُمُومَةً غريبةً قريباً مني ، وما كدتُ أدورُ برأسي حتَّى رأيتُ ذَكَرَ تلك الدُّبَّة المقتولة يتقدَّم نحوِي وقد فتح ذراعَيْهِ وخُرطومُهُ الواسع واستمدَّ لوثوبِ عليّ .

ولما لم تكن لي رغبةٌ لأحتضِنَ هذا الدُّبَّ الذي صيرُّهُ أرملاً بقتل زوجته ولما كانت بندقيتي خاليةً في تلك اللحظة من الرصاص ، فأضبحتُ عديمةَ النفع ، لذلك كله لم أجدْ لنفسي مخرجاً إلا أن أتسلَّقَ شجرةً قريبةً حتَّى أجدَ مُهْلَةً لأشحنَ بندقيتي من جديد وما هي إلا لحظةٌ حتَّى كنتُ فوق شجرةٍ قريبة ، وبينما كنتُ أشحنُ البندقيَّةَ بالبارودِ على عجلٍ إذ برقاصِ البندقيَّةِ يثبُّ من يدي التي أصبحتُ كالمشاولَةِ من شدَّةِ البردِ ويسقطُ على الأرضِ تحتَ الشجرة . عند ذلك عمي الغمرُ فجلستُ على بعضِ أغصانِ الشجرة حائرًا قلقاً خَوْفاً من أن يجمعَ الدُّبُّ رأيتُهُ ويصعدُ إلى مكاني .

ولكنَّ الخطأ كان حليفي إذ أن الدبَّ بدلاً من أن يتبني راح إلى أثناء اللقاء على الأرضِ وكأنه يحاولُ أن يعرفَ السببَ الذي من أجله بدتُ ساكنة عديمة الحركة وقد تدفَّقَ منها الدم على وجهِ الثلج الأبيض . فاقترَبَ منها وأخذ يشمُّها مراراً عدَّة ثم يلمسُها بكفِّهِ وهو يموء يموءً مُخزناً ، ثم طَفِقَ يدور حولها وكأنه يحاولُ أن يرقمها من مكانها .

وقد استغرق ذلك بعض الوقت ، وهذا ما كنت في حاجة إليه حتى أتمكن
بوسيلة من الوسائل أن أتخذ رفاص البندقية الملقى على الثلج ، أمّا أن أحاول
ذلك بنفسى فكان بطبيعة الحال أمراً مستحيلاً . عند ذلك مدّ إلى البرد الشديد
يد المساعدة .

أخرجت من جيبى قطعة من لباب الخبز الأبيض الذى كنت أحمّله لفظورى
ومضغتها قليلاً ثم عقدتها فى طرف كراباج الصيّد وأدليت بها حتى لمست رفاص البندقية
الملقى على الأرض وما أسرع أن تجمّد لباب الخبز . عند ذلك سحبت الكراباج
الذى التصق بطرفه رفاص البندقية ! ولا أظنكم تعجزون عن تصوّر ما حدث
بعد ذلك . حشوت بندقيتى من جديد وأطلقتها مرتين على الدب فأصابت الأولى
صدغه والثانية قلبه ، فازتمى على الأرض وأخذ يموء وكأنه يودّع أتناه ويزارزثيراً
خافتاً وكأنه يصب جام غضبه على !
والآن ، أنعموا مساء !

الليلة العشرون

عند ما التأم عقد الاجتماع في هذه الليلة دخل البارون بصُحبة شاب في مُقتبلِ العمر قدّمه إلى الحاضرين باسم ابن أخيه « فالديمار فون مونشهاوزن » الذي جاء ليقضى بضعة أيام في زيارة عمه لا سيما أن كثيراً من أبناء الجامعة يعرفون أخاه التوأم « أدالبرت » .

فلما استقرّ بهما المقام صاح أحدُ الجالسين من الشبان : « أهلاً بك يا أدالبرت » ، وما الذي دعا بعمك ليقدمك إلينا باسم أخيك « فالديمار » الذي لم تقع عيني عليه منذ أن كنّا ندرُس سوياً في معهد الغابات .

وبدلاً من أن يرُد الشاب على هذا السؤال أجاب البارون :

« إن سبب ذلك بسيط للغاية ذلك أن هذا الشاب يدعى فعلاً « فالديمار » وإن كان من السهل أن يختلط الأمر على الناظر فيحسبه أخاه الذي يُشبهه شَبهاً كاملاً .

وبينما كان البارون يُؤكّد هذه الحقيقة اقترب السائل من ابن أخيه ، ولم كانت دهشته عند ما رأى أن الزائر لا يكاد يترق في خِلْقته عن زميله في الدراسة « أدالبرت » الذي يعرفه معرفةً تامةً . فلما رأى البارون مبلغ دهشته عَقَّب على ذلك بقوله :

«أحلف لك بشرف القروسيّة أن من تراه ليس صديقك أدايبرت بل
فالديار ! وإني أوكد لكم أن أقرب المقرّين لأحد التّوأمين ليعجز عن التّمييز
بينهما فينادى الآخر باسم أخيه الذي لم يره من قبل، وإني أترك ضيفنا الليلة ليقتص
عليكم طرفاً من الحكايات التي امتلأت بها حياتي بسبب هذا الشّبه التام بينه
وبين أخيه .

ثم إن فالديار اعتدل في مكانه وراح يروي هذه الحكاية .
منذ طفولتنا الأولى كان التمييز بيني وبين أخي عسيراً للغاية بسبب هذا
الشّبه العظيم حتّى إن أبي وأُمّي ما كانا ليفرقا بيننا .

لهذا السّبب درجنا منذ طفولتنا على أن يلبس كل واحد منا لوناً من الألوان،
فكانت ملابسنا دائماً زرقاء لهذا كنّا نعرّف بالولد الأزرق ، أما أخي أدايبرت
فكان يُعرّف بالولد الأخضر نسبة لهذا اللون الذي كان يرتديه دائماً والذي كان يلازم
دراسته كتلميذ في معهد الغابات . وإني لأزوي لكم حكاية لعلكم تتندرون بها .

...

حدث في الحريف الماضي أن خرجنا في رحلة إلى جبال «الحارز» وبعد ثمانية
أيام انتهى بنا المطاف إلى قرية اعتزلنا المبيت بها . فلما كان الصباح حضر
المزيّن ليخلق لنا وكنّا في تلك الساعة نأكل في غُرْفتي أما أخي أدايبرت فكان مستعداً
في انتظار المزيّن فلما أن انتهى من جِلافة دقّته قصد أخي إلى غُرْفَةِ النّوم ليغسل

وَجْهَهُ مِنَ الصَّابُونِ ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ خَرَجْتُ بِدَوْرِي إِلَى حَيْثُ الْمَزِينُ ، فَلَمَّا جَلَسْتُ قُبَالَتَهُ رَجَوْتُ مِنْهُ أَنْ يُعْنِيَ بِحِلَافَةٍ وَجْهِي إِذْ كَانَ الْيَوْمُ يَوْمَ عُطْلَةِ الْأَحَدِ وَلَا أَرْعُبُ فِي أَنْ أَبْدُو بِلِصِيَّةٍ طَالَتْ فَبَلَنْتُ نِصْفَ قَدَمٍ .

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَزِينُ كَلَامِي هَزَّ رَأْسَهُ وَقَالَ : « لَيْسَ لِي فِيكَ حِيلَةٌ فَمَاهِي إِلَّا بَرَهَةً مِنْذُ أَنْ تَرَكْتُ وَجْهَكَ .. » فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنِّي كَادَ يَسْقُطُ مِنَ الدَّهْشَةِ عِنْدَ مَا رَأَى لِحْيَتِي وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا أَنْ دَهَنَ وَجْهِي بِالصَّابُونِ مِنْ جَدِيدٍ وَقَالَ :

« إِنِّي لَا أَكَادُ أَصَدِّقُ عَيْنِي إِلَّا إِذَا كَانَ مَا أَرَى سِحْرَ سَاحِرٍ ، فَمَا شَاهَدْتُ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِي الطَّوِيلَةِ مِنْذُ احْتَرَفْتُ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ أَنَّ لِحْيَةً تَنْبِتُ بِهَذِهِ السَّرْعَةِ وَمَاذَا أَقُولُ لِأَبْنَاءِ صِنَاعَتِي إِذَا رَوَيْتُ لَهُمْ مَا حَدَّثَ ؟ ! »

فَلَمَّا انْتَهَى سَأَلْتُهُ عَنْ مِقْدَارِ أَجْرِهِ فَفَضَحْتُ ضِعْفَ هَذَا الْقَدْرِ أَجْرَةَ الْحَلَّاقَتَيْنِ ، وَلَكِنَّهُ أَبَى إِلَّا أَنْ يَأْخُذَ النِّصْفَ حَتَّى شَدَّدْتُ عَلَيْهِ ، وَلَمَّا خَرَجَ سَمِعْتُهُ يَكْلَمُ نَفْسَهُ وَيَذْكُرُ السَّحْرَ وَالسَّحْرَةَ .

عِنْدَ مَا انْتَهَى فَالِدِيَارِ مِنْ حِكَايَتِهِ ، ارْتَقَمْتُ فَهَقْمَةُ الْحَاضِرِينَ . أَمَّا الْبَارُونُ فَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً طَافِيَةً وَرَاحَ يَحْكُ دَقْنَهُ بِأَصَابِعِهِ وَقَالَ :

« أَمَّا أَنَا فَسَأَقْصُ عَلَيْكُمْ حِكَايَةَ مُزِينٍ آخَرَ كُنْتُ سَبَبًا فِي حَبْرَتِهِ وَدَهْشَتِهِ وَهَذَا مَا سَأَرْوِي لَكُمْ خَبْرَهُ فِي الْغَدِ ، فَاسْتَوْدِعُكُمْ اللَّهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ . »

الليلة الحادية والعشرون

أقبل البارونُ برفقة ابن أخيه ، وما إن جلسَ حتى بدأ الكلام دون أن يُعبد إلى ذلك بمُقدِّمة كما هي عادتهُ :

لى صديقٌ سافر إلى أمريكا للفُسحة ، فلما عاد إلى ألمانيا أحضر دهاناً عجيباً اشتراه هناك ، من صفاته أنه يُطيل الشمرَ ويُقوى بُدوره فأهداني من هذا الدواء سبعَ عُلبٍ كبيرة .

ولما كنتُ فى ذلك الوقتِ فى غير حاجةٍ إلى هذا الدهانِ إذ كنتُ لا أُنحى بإطالةٍ لحتى خَزَنْتُ هذه العُلبَ فى حجرةِ الحطبِ ، فحملها خادمى «يوهان» وصفها على النافذة حيثُ شمسُ الظهيرة تغمُرُها فى كلِّ يومٍ .

مضت أيامٌ طويلةٌ لم يحدثُ فيها ما ذكّرنى بهذا الدهانِ ، إذ كنتُ -فضلاً عن ذلك- لا ثقةً لى به ، وكنتُ أعتقدُ أنه من دَجَلِ الأمريكِيِّين . ثم حدثَ بطريق الصدفة أن دخلتُ هذه الحجرةَ ذاتَ مرةٍ ، وقد مضى على هذا الدهانِ شهرٌ كاملٌ ؛ فما إنْ خَطَوْتُ خطوةً حتى وجدتُ أرضَ التُّرْفَةِ غارقةً فى هذا السائلِ اللزجِ الذى يخوضُ فيه الداخل حتى ركبته . فأتَمْتُ تذكرونَ يا أصدقائى كيف أن الشمسَ قد أذابتِ الدهنَ فتسرَّبَ من ستاديقِهِ إلى الأرض ، ولكن

التي أريد أن أوكدكم لكم هو أن فعل الدهان ما في قويا ، بل لعله أصبح أشد من ذي قبل ؛ انحنيت وغمست طرف إصبعي في الزيت ولمست به شفتي الثعلب لمسارقيفا فأحسنت بلسعة مقبولة لا أكثر . فلما أصبح الصباح ونظرت إلى وجهي لم أكذ أنيئته ، إذ في خلال الليل نبت الشعر على شفتي واستطال كشارب قرسان الموسار .

وحدث مرة أن كان المزين يقوم بخدمتي فلما أن انتهت ذهبت إلى الغرفة المجاورة ودهنت وجهي بهذا الزيت ، فلما عدت إليه ليغسل رغو الصابون وجد أن جذور الشعر نبتت من جديد فمرته الدهشة وعاد يستكمل مهمته وهكذا أعدت هذه الفكاهة سبع مرات في ذلك الصباح ، والحلاق في كل مرة يحاول أن يضع حداً لذلك حتى كالت ذراعه فلم يستطع أن يرفها من شدة الإعياء وكلت موساه من تكرار المحاولة .

وإنه ليؤسفني أن أعجز عن إثبات العجائب التي يصنعها هذا الدهان ، لأنه لم تمد لدي بقية باقية منه . وسبب ذلك أتى ألفت أكثره في تربية مهن لي صحتي أثناء اشتراكي في المعارك الحربية في هولندا ، وكان من أثر ذلك أن استطال شعر هذا المهن حتى بدا في شكل كلب من كلاب الزينة ، فكان إذا سار خلفي ولعب الهواء بخضلة الطويلة أثار إعجاب السائرين ودهشتهم ، وقد أصاب خادمي « ثونياز » نتيجة لذلك بعض الخير أو بعض الشر لا أدري ، إذ أن الشعر



نَبَتَ فِي كَفِّهِ حَتَّى أَصْبَحَ كَالضَّفَائِرِ ، كَمَا نَبَتَ عَلَى صُدْغِهِ عَلَى أُنْزِلَةِ غَيْرِ
مَقْصُودَةٍ عِنْدَ مَا كَانَ يَمْشِي هَذَا الْمَهْرَ ، حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يَذْهَبُ إِلَى الْأَسْوَاقِ
وَيَعْرِضُ نَفْسَهُ لِلْفَرْجَةِ لِقَاءِ قَدَرٍ مِنَ النُّقُودِ .

لَقَدْ وَعَدْتَكُمْ يَا أَصْدِقَائِي بِأَن أَرَوْيَ لَكُمْ طَرَفًا عَنْ فِعْلِ حَرَارَةِ الشَّمْسِ وَمَا
تَقُومُ بِهِ مِنْ عَجَائِبَ . وَهَذَا مَا حَدَّثَ لِي فِي تَرْكِيَا ، وَلَكِنْ تَأَخَّرَ بِنَا اللَّيْلُ فَلْتَرْجِعْ
ذَلِكَ إِلَى الْغَدِ .

الليلة الثانية والعشرون

حدث مرة أن كنتُ في استانبول في خلال أحد الأعياد التركية، فاستأجرتُ قارباً للتجديف في بحر «مرمرة»، وبينما أنا كذلك إذلحتُ نقطة سوداء متحركة. فأتار ذلك حدسى وقلتُ لنفسى لعل ذلك طائرٌ من الطيور. فلما رأى الملاحُ خيّرني ذكر لي أنه كثيراً ما يَرى في هذه الناحية عروساً من عرائس البحر، وأن هذه العرائس لا تؤثر فيها البنادق.

والحقيقة أنني لم أر في حياتي عروساً من عرائس البحر، لهذا لم أصدق ما قاله الملاح واعتبرته ضرباً من الخرافات الشائبة التي يُصدّقها صغار الأحمال دون أساسٍ معقول؛ ولكن الرجل الذي مرّت به تجارب الحياة المختلفة ورأى غرائبها ليس له إلا أن يمسك بأهداب الحقيقة ولا يثق إلا بما يجد له إيجاباً قاطعاً.

وكان من حسن الحظ أن بُندقيتي كانت معي فرفعتها إلى صدرى وأطلقتُ ثلاث رصاصاتٍ أو أربعاً صوب هذه النقطة المتحركة في الفضاء، فتبينتُ أنها ما زالت تتحرك وتبتعد أكثر من ذي قبل، وأن الارتفاع الذي ارتقت إليه لا تصلُ إلى مداه البندقيّة لهذا رأيتُ أن أستخدم نوعاً خاصاً من الرصاص بعيد المدى، فحسوتُ ببندقيتي ثلاث قذائف أخرى؛ وكان من السير أن أُصيب الهدف لصعوبة الإصابة في ارتفاع رأسى والقارب من تحتى يتأرجح يمنة ويسرة، فلما

أطلقتُ القذيفةَ ترددتْ فرمعتها في الهواء كالرعدِ القاصفِ ، وفي تلكَ اللحظة
نفسها وجدتُ نفسي مُلقًى في قاع القاربِ إذ دفعتني شدةُ القذيفةِ إلى الوراء ،
فارتميتُ في مكاني بُرْهةً وقد أرتج على من هول الصدمة .

فلما فتحتُ عيني أَبْصَرْتُ تلكَ النقطةَ السوداءَ وقد أخذتْ تهبطُ فجأةً حتى
إذا اقتربتْ من مدى البصر تبيّنتها جلياً فإذا بها منطادٌ هوائيٌّ ، وليست طائرٌ أم
الطيور كما كنتُ أعقِدُ . وأخذتُ أقدر مدى عِظَمِ الارتفاعِ الذي كان يسبحُ فيه
المنطادُ حين كان لا يبدو للعَيْنِ إلَّا شَيْءٌ نُقْطَةٌ غامقةُ اللونِ ، حتى إذا اقتربَ من
الأرض بدا في حجبه الطَّبِيعِيّ فكان محيطُهُ أَكْثَرَ اتساعاً من قُبَّةِ جامعِ استانبول
السكبير الذي اقترب المنطادُ منها فبدا التماثلُ بينهما واضحاً .

وكانت تتدلى من المنطادِ سَلَّةٌ كبيرةٌ في حجمِ القاربِ الذي كنتُ اركبه .
وفي كلِّ لحظةٍ كان هذا الماردُ يقتربُ من سطحِ الماءِ شيئاً فشيئاً وما هي إلَّا لحظةٌ
حتى سقطَ في البحرِ بدويٌّ هائلٌ وتناثر الماءُ من شِدَّةِ السَّقْطَةِ إلى ارتفاعِ كبيرٍ
وقد عَرَفْتُ بعد ذلكَ أَنَّ هذا الدَّويَّ مِمْمَةُ النَّاسِ في اسطنبولِ نفسها ، بل على
مسافةٍ أبعدَ من ذلكَ ، فسمِعْتُ النَّاسَ على الشاطئِ الأسيويِّ ، وكان الرأْيُ السَّائِدُ
أَنَّ مخزناً من مخازِنِ البارودِ قد انفجَرَ في الهواءِ وأخذتْ هذا الدَّويُّ المرعِبَ .
وعلى كلِّ حالٍ كَانَ من حُسْنِ حظِّي أَنَّ هذا الجسمَ الهائلَ قد سقطَ إلى يسارِ
القاربِ الذي كنتُ فيه ولم يَهْبِطْ على رؤوسنا .

فلما أن سكنت أمواج البحر التي ثارت بفعل سقوط المنطاد اقتربت بقاربي منه فوجدت في سلته رجلا هزيل الجسم من شدة الجوع والإعياء ، فلما رأيته هشاً إلى وحياني تحية الرجل المدين له بحياته . فعرفت منه أن اسمه «سميث» وأنه إنجليزي، ثم قص علي حكايته.

كان هذا الرجل يعمل ملاحاً هوائياً فخرج قبل ذلك بخمسة أيام من مدينة نيويورك بصحبة اثنين قاصدين شلالات نياجرا . وما إن ارتفع المنطاد في الهواء متجهاً صوب الغرب حتى هبت ريحٌ حاصفه حملت المنطاد في طياتها وقذفت به صوب المحيط الأطلسي شرقاً . عند ذلك استقر رأي ثلاثتهم على الهبوط قبل أن يصل المنطاد إلى حافة الماء ، ولكن سوء الحظ لازمهم إذ عندما حاولوا فتح صنبور الغاز ليتسرب إلى الهواء وجدوا الحبل مقطوعاً ، فاقترح الطيار على رفيقه أن يسارحا إلى إنقاذ نفسيهما بالمظلة الهوائية قبل أن يستحيل ذلك عليهما إذا ما وصل المنطاد فوق المحيط وهكذا نجوا ، فلما هبطا إلى الأرض وجدا أنهما في جزيرة «نيو فونديلاند» ؛ أما سميث فقد دفعت الرياح منطاده شرقاً فلم يكن لديه من أمل في النجاة إلا إذا قذفته الرياح إلى سطح اليابسة فاتمى به المطاف إلى أوروبا .

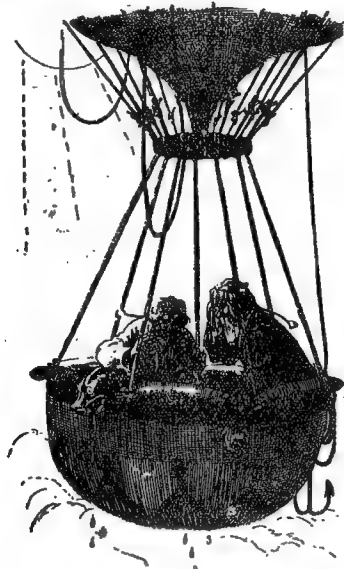
أخذت الرياح تتقاذف هذا المنطاد الذي صمد لها فلم ينفجر ويسقط في الماء بل حالفه التوفيق فوصل بر السلامة ، ولكن لم يكن في قدرة صاحبه

أن يهبط به إلى الأرض ، وكان ما يحمله من طعام وشراب قد نفدَ حتى تكالب عليه الجوعُ والمطشُ قهالك إعياء ، فكانت القذيفةُ التي أطلقها سببا في نجاته ، إذ أحدثت ثغرةً في كُرّةِ المنطاد جعلت الغاز يتسرّبُ منها فيثقل وزنه ويهبطُ إلى الأرض فبذلك نجا الطيار من الموت الذي كان يترصّيه .

وبدا مستر «سميث» حارفاً بالجيل شاكراً لى صنيعى ، حتى إنه رغب في أن يقدم إلى المنطاد نفسه هديةً ولكنتى رفضتُ عرضهُ على كلِّ حالٍ إذ لا أعرف ماذا أصنعُ بمثل هذه الهدية؟ أما صاحبُ المنطاد فكان يقصد في الحقيقة أن يبرّر لى عن جزيل امتنانه لصنيعى ، لذلك اقترحتُ عليه أن يكتبنى بأن أصحبه في رحلةٍ هوائيةٍ وهذه أبلغُ في نفسى أثرًا من الهدايا . فكان أولُ ما حرصنا عليه أن نُصلح خرق المنطاد ، ولكنتنا لم نجد في تركيا جميعا إخصائيا في صناعةِ ترقيعِ المناطيدِ فرسنتُ عليه وأنا باسمُ أن أقوم بهذه المهمة ؛ فلما كان اليوم الثاني وجد لدهشته أن الخرقَ قد أُصلح مكانه فارتقيتُ وإياه سلةُ المنطاد ، وضحبتا في هذه الرحلة الهوائية كلبُ فارسى الأصل ضخم الجثة اشتراه صديقى لوجهة منظره .

وما إن استقرّ بنا المقام في هذه السلة حتى قطع صديقى الجبل فأخذ المنطاد يصعد في الهواء شيئاً فشيئاً وكانت سرعةُ المنطاد في بادئ الأمر عيفةً أو لعلّ أحسنستُ بها كذلك ، بيد أننى ما أسرع أن فقدتُ هذا الشعور الميّض وطفقتُ ألهو بالنظر إلى مَشاهد الأرض والبحر التى بدت ساحرةً من

تحتي، والتي أخذت دأرتها في الاتساع شيئاً فشيئاً . فإِنْ انقَضَتْ خمسُ دقائق
حتى بدأ أمامَ عيني البحرُ الأسودَ بأكمله، وبدأ من الطرف الآخر شاطئُ الدردنيل
وبعض أجزاء البحر الأبيض وطرفٌ من شاطئ إفريقيا، وبعد ساعةٍ من ذلك



نظرتُ فإذا بأوريا جيمها ممتدة تحتنا وكأنها مضمورةٌ جُغرافي، ثم ارتقينا إلى أبعد

من هذا قراءت لنا آسيا حتى حدود الصين واليابان ا

لقد كان المنظر فاتنا جميلا حتى إنني نسيت كل شيء غيره ؛ أما قائد المنطاد
فبدأ على حياة التعب والاجهاد إذ كلما ارتقىنا مرحلة ارتفعت درجة الحرارة وأخذت
نبضات قلبه تتوالى وتتابع إذ لم يحدث أن ارتقى صاحبي إلى مثل هذا الارتفاع
الكبير ، وأخذ العرق يندفع من كل مسام جلده كالينابيع ، أما المنطاد فبدأ
لنظري وكأنه يتمدد بسبب خفة الهواء في هذه الطبقات الجوية العالية ، وقدّر
صاحبي هذا الارتفاع بعشرين على الأقل ، أما أنا فخالفت في ذلك إذ قدرت الارتفاع
الذي وصلنا إليه بما لا يقل عن خمسة عشر ميلا أو عشرين ميلا من سطح البحر ، وبما أكّد
لي ذلك شدة الحرارة التي تدل على أننا قد اقتربنا من قرص الشمس ، إذ كنت إذا
نظرت إلى الأرض من تحتي لأميز بين جبالها وأوديتها فقد بدت للعين صحيفة ملساء.

عند ذلك عرضت على صاحبي أن تقتصر عند هذا الحد ، ففتتح صنبور الغاز
حتى إذا أخذ يتسرب إلى الهواء يقل وزن المنطاد وتأخذ في الهبوط ، غير أن صاحبي
اعترف بأنه حاول ذلك فعلا ولكنّ الحبل لم يسعفه ، فإما أنه معقود أو أن خلافا
طرا على الصنبور في جزء من أجزائه ، وفي تلك اللحظة أخذ الكلب يتحرك ثم
ينبح نباحا حزينا ، وكان قبل ذلك ساكنا صامتا لا يبدي حراكا ، وأخذ ثبأه
بعد ذلك في الخفوت كلما ازداد الارتفاع وتخلخل الهواء ، بل إن صوت صاحبي
نفسه لم يمدّ واضحا فصار من المسير أن تتبادل الكلام . كل هذا والمنطاد

يتابعُ صموده في هذا السكون الذي انعمت فيه الأصوات حتى إننا في النهاية لم نعدْ نتبادلُ الرأى إلا بالإشارة . وبدأ لي أن رفقى قد قَدَّ قواه وأصبحَ حاجزاً عن أن يَسْحَبَ الحبلَ الهوائى بالشدة اللازمة ، لهذا رأيتُ أن أقومَ بهذه المهمة بدلاً عنه فأمسكتُ بطرف الحبل وجذبتُه جذباً عنيقاً ولكنَّ صبورَ الناز لم يفتَحْ ، وكلَّ ما حدث أننى قطعتُ الحبلَ نفسه شطرين وسقطتُ على الأرض في قاع السلة وما زلتُ مُمسِكاً بطرفه !

وعندما تَلَقْتُ حولى بعد بُرْهةٍ أَلْقَيْتُ صديقى متمدداً كالأموات وقد قَدَّ شعوره من شدة الصدمة ، أما الكلب فقد مات بالفعل ؛ فتدلى لسانه طويلاً ونصَلَّتْ أطرافه وسكنتْ حركة عينيه ووقفتْ دقات قلبه :

يا له من موقفٍ عديم المثال لا أكادُ صَوَّرُهُ لكم بأمانةٍ وصدقٍ ! فقد غُمَّ على الأمر ولم أدر كيف أعالج الموقف ، إذ أن ما حملناه من نبيذٍ وماء قد قَدَّ وألقينا بالزجاجاتِ الفارغة إلى الأرض . زحفتُ إلى حيث مسر «سميث» فوجدته ما زال ينفس وإن كان نبضه ضِعِيقاً خافتاً ، لهذا رأيتُ أن أسرع لنجدته قبل أن يفوت الأوان . فلما وقعتُ عيناى على الكلب النافق مرتُّ بي في فكرةٍ خاطفةٍ ، فاستللتُ مُدْبِئى وأقذتها في جلده حتى تدقق دمه في كفى وأخذتُ الطَّخَّ به وجه الإنجليزى وصدره . ولا شك في أن هذا كان علاجاً ناقماً لأنه أخذ ينفَسُ يُطَوِّعُونِ لم يعدَّ عاماً إلى صوابه ، ثم جاء دورى فأخذتُ أَمْسَحُ وجهى وجبته بهذا الدم ، فأجسستُ بألمٍ كلَّ سَمْعَةٍ

الحريق ، ولكنتي لم أجِد وقتاً لأفكر في نفسي ، بل كنت شديد الحرص على العناية بزميلي حتى يعود إلى رُشدِهِ ، ولما كانت يدي خالية من كل وسيلة عملية لإيقاظه ولم أجِد بداً من الاستئانة بهذا الكلب لهذا سَلَخْتُ جلده وفتحتُ بعض شرايينه طلباً للدم التي عُدْتُ فمسختُ به وجهه وصدره وقَطَرْتُ قُطْطاً منه في فم المريض . لقد نجحتُ ، لأن صاحبي أخذ يتنفس في صُحْق ثم إنه فتح عينيه واعتدل في تحليسه ولكن منظره كان مخيفاً بعد أن تَلَطَّخَ وجهه بالدماء .

كل هذا والمنطاد ما قَيَّ صاعداً ، فإذا أنا صانع ؟ لا أشك في أننا اقتربنا كثيراً من الشمس إذا أصبح الوهج والحرارة لا تُحْتَمَلُ . عند ذلك فكرتُ في طريقة أخرى للخلاص فجدتُ بنقلتي وصوتها نحو المنطاد وأطلقتها ولكنتي لم أسمع لها صوتاً ! إذ كان الهواء قد وصل إلى درجة من التخلُّط جعلت الأصوات غير مسموعة ، ولكن القذيفة أصابت الهدف فعلاً فأحدثت ثغرة في كرة المنطاد جعلت الغاز يتسرب منه رويداً رويداً وأخذ المنطاد في الهبوط شيئاً فشيئاً وبدأت الحرارة في الانخفاض .

نعم إنني لم أتذوق من قبل لحم الكلاب ولكنتي ما كنت لأتورع من أن أتهم هبة من لحم الكلاب التي وأنا على تلك الحال ؛ وهذا ما حدث بالفعل ، إذ أخنعتُ في تشریح الكلب وما إن بدأتُ ذلك حتى وجدتُ - وبيا للعجب - أن الكلب كان مشويّاً تامّ التضيح بفعل حرارة الشمس الشديدة ، فبينما كنتُ أنا

وصديقى نحتفى فى ظلِّ كُرَّةِ المنطادِ كان الكلب يتقلَّى فى دُهنه حتَّى أصبح طعمُهُ
شهيماً مقبولاً . ولا غرابة فيما فعلناه إذ كنَّا لا نتورَّعُ عن أن نأكل ما هو دونه
من طعام ، ألم يأكل الشَّيْطَانُ الدَّابَّابَ فى ساعةٍ من ساعاتِ بؤسه ؟

وما إن اتَّهينا من طعامنا وتلقَّنا حوتنا حتَّى وجدنا أنفسنا على سطحِ أمْنا
الأرض مرةً أخرى . وكان من حُسْنِ الحظِّ أن تعلقنا بنقطةٍ فوجدنا بذلك الفاكهةَ
بعد الشواء ! فبعد أن ازدردنا جفنةً من البليح هبطنا إلى الأرض ورُخنا إلى نبعٍ
قريبٍ لنطفيءَ الظَّمأَ ونفتسل ، وكان مستر «سمت» أشدنا حاجةً إلى الاغتسال .

وحدث كما يحدث عادةً بعد غداءٍ فاخرٍ - أن أحسَّنا برغبةٍ مُلحةٍ فى النوم
فانطرحنا إلى جانب النبع وما أسرع أن حلَّ بنا النعاسُ فنفقنا حتَّى استيقظنا فى
الصُّباح على أصواتٍ تقترب منا ؛ وكان القادمُ قافلةً لبعض التجارِ مَحْمَلةً بالبضائعِ جاءت
إلى النبع لتشرب ، فعرفتُ منهم أنَّنا فى إحدى واخاتِ جزيرة العربِ الحَجَرِيَّةِ القاحلةِ ،
وأن القافلة فى طريقها إلى القُدس ، ولم نجد صعوبةً فى أن نرافقهم إلى فلسطين .

ولا أريدُ أن أقصَّ عليكم كيف أن أحد رجالِ القافلةِ من العارفين بالتطبيب
عُنِيَ بأمْرِى فاستأصلَ دُملاً كبيراً عندى كان قد نشأ بسبب الضغوطِ الهوائيةِ وقد
لا تُصدَّقوننى إذا قلتُ إنَّنى صنعتُ من جلدهِ هذا الدمِ خُفّاً عندما وصلنا إلى القُدس !
والآن لقد جفَّ ريقى من الكلام ، ولعلَّ ذكرياتِ حرارةِ الشمسِ

اللافحةِ قد زادت من عطشى ، فالى بَرَجاجةٍ من التَّيِّدِ أو بَرَجاجتين !

الليلة الثالثة والعشرون

أصدقائي المحترمين ورفاقي الأعزاء .

حضرتُ في هذه الليلة مُنفرداً كما ترونَ ، إذ أن ابن أخى أصرَّ على أن يعود إلى شقيقه التوأم الذى عزَّ عليه أن يفارقه فسافر وصحبته زوجتى فى رحلته ، لهذا أسألكم أن تسمحوا لى بأن أشاطركمُ العشاء فى هذا المطعم ، ولكم أن تعتبرونى رجلاً أرمِلَ إلى أن تعودَ إلى زوجتى .

وقبل أن أستكمل لكم قصتى التى بدأتُ روايتها فى الليلة الماضية ، أريدُ أن أوكدَ لكم أن تلك الرحلة الهوائية وما جرت على من متاعب ما فتئت ذكرها مالتةً بذهنى منذ ذلك العهد الطويل . فلما وصلنا إلى القدس وجد مستر «سمت» سفينةً أقلته إلى لندن ، أما أنا فمُدتُ أذراجى إلى اسطنبول . ولقد كان اختفائى السياسى من هذه المدينة كما تذكرون سبباً لغضبِ السلطان وحققه ، فإِنْ تركتُ المدينة حتى أرسل المنادون خلقاً يُملنون الناس بأجراسهم فى الشوارع بأن البارون قد اختفى ، وأن السلطان يدفعُ مكافأة قدرها ألفُ جنيه لمن يأتى بالبارون أو يرشدهُ عن مكانه .

علمتُ خبر هذا إلَّبان رحلتى ، فلما عُدْتُ إلى اسطنبول أرسلتُ أحد الانكشارية

إلى القصر يقول إن رجلاً غريباً يعرف المكان الذي اختفى فيه البارون ؛ فلما سمع السلطان ذلك جاء إلى مكانى وهو يحمل بين يديه كيساً فيه ألف جنيز. فأتهم تروؤن ياسادنى كيف أن جلالتة تُحِبُّ للتندر والفكاهة إذ أنه ما وقعَ بصره على حتى أقبل هاشامُ رحباً : « أهلاً بك يا صديق مونشهاوزن ! ها أنت تعودُ إلينا ثانية ! ولكن أين كنت وأين كان مُقامك » فأجبتة « .. لقد كنتُ فى جوارِ الشمسِ » .

وينا كُنَّا ننزه فى حدائق القصر رَوَيْتُ للسلطان ما جرى لى أثناء رحلتى الأخيرة إلى الشمس ، فكان لذلك وقعٌ كبيرٌ على نفسه ، وأصابته ذهشة عميقة عند ما ذكرتُ له بصفة خاصة كيف أن قوى الجسدية الهائلة كانت سبباً فى نجاحنا . وفى تلك اللحظة كُنَّا إلى جوار المدفع النحاسى الكبير المشهور الذى يُعتبرُ أمضخم المدافع فى الدنيا قاطبةً وهو الذى يُطلقُ قنبلةَ زتها ألف ومائة رطلٍ ويحتاج من البارود ما زنته ثلاثمائة وثلاثون رطلاً . فلما انتهيتُ من كلامى ابتسم السلطانُ وقال :

« إذا كان ما تقولهُ صِدْقاً يا مونشهاوزن فدونك هذا المدفع ارفعه إلى الهواء إذا استطعت .. »

فأجبتُ السلطان : « لك ذلك بل ائى مستعدٌ لأقوم بتجربةٍ أبزع من هذه ، فأرفع هذا المارِدَ النحاسى بيدٍ واحدة فى الهواء . »

ولعلَّ السلطان كان يُريدُ أن يسخرَ منى لأنَّه عرض على إذا مارفعتُ المدفع

وسرْتُ به مائة خطوة أن يمتحنى مائة جُنَيْهِ عن كل عشر خطواتٍ . فأثار هذا العرضُ في نفوسِ الكُتَّابِ والشعورِ بالكرامة .

فإن انتهى من كلامه حتى خلعتُ معطفي وانحنيتُ على المدفع وقبضتُ عليه بكلتا يدي ورفعتُ في الهواء ثم وضعتُ على عاتقي ونزلتُ به الدرج .

فإن رأى السلطان ذلك حتى صاح من الدهشة . ولكنتي لم أقف ولم أمهل بل تابعتُ سيرى حتى وصلتُ إلى ساحل البحر فزلتُ به في الماء وسألتُ السلطان كم يتقدمني إذا حملتُ هذا المدفع ساجداً إلى الشاطئ الآخر ، فوعدني بستين ألف جنيه إذا فعلتُ ذلك . لقد كان ذلك المجهود شاقاً ولكنتي سبغتُ بمهارة ونجحتُ في الوصول إلى الشاطئ الاسيوى ا

كنتُ متعباً بمض الشيء فارتميتُ على الشاطئ لأستجم ، ولكن ما هى إلا لحظات حتى وصلَ إلى مكاني زورق يُديره ثمانية عشر عبداً يقلُّ أحد باشوات القصر الذى جاء إلى يحملُ الأخبار بأن السلطان العظيم أرسله ليهتني ويمدني بأربعة أضعافِ المكافأة إذا عُدتُ بالمدفع إلى مكانه الأول .

فلما سمعتُ كلام الباشا أحسستُ بالتشاطر يدب في جسمي ، فإن مائتين وأربعين ألفاً من الجنيهات ثروة تدفعُ الرجل ليأتى بالعجائب ، ولم أنتظر طويلاً بعد أن أكد لي الباشا أن السلطان جاد في كلامه ، فعقدتُ ذراعى واحتضنتُ هذا المدفع الضخم وقذفتُ به برمية واحدة إلى الشاطئ الأوربي ، ولكن سوء الحظ

لازمتني إذ أن شدة الرمية لم تكن كافية ، فسقط على بُعد ثلاثمائة خطوة من الشاطئ وغرق في البحر حيث ما زال رابطاً في قاعه إلى اليوم . كان هذا الحادث سبباً لهربي من أسطنبول ، ولم أحاول بعد ذلك العودة إلى هذه المدينة لأنني أعرف أن الحبْل الحريرى ينتظرني ، لذلك صمدتُ إلى التخفى فاشتريتُ ثوباً من ثياب العمال ليخفى حقيقتي واستأجرتُ قارباً شراعياً من أحد البنادقة وهربتُ به ، ومنذ هذا الحادث الذى انتهى بالفشل لم تطأ قدمي أرض تركيا .

والآن فى العشاء فيها هي صاحبة المطعم جاءت تدعونا ولا شك للطعام ، وإننى أسألكم يا سادتي هل تعرفون « الفيلس » المشهور ؟ لا ولا شك ! إنه اسم لصينفٍ مُمتاز من السمك لا يعيش إلا فى بحيرة كنستانس بسويسرا ، ولهذا السمك قصة ..

...

منذ خمسة وعشرين عاماً كنتُ فى مدينة « بازل » صينفاً على أحد أصدقائى لأشترك فى حفلة عرسه التى كان سيحيها بعد أسبوعٍ من ذلك التاريخ ، وجاءت السيدة إلى صاحبي تشكو من اختفاء سمك الفيلس وهو صنف لا بد منه فى ولائم الزواج ؛ ولما كنتُ لم أسمع عنه من قبل سألتُ عن نوعه وعن مكانه وعزمتُ فى التوجه إلى السفر إلى كنستانس ولم تنقضى ثلاثة أيام حتى ملأتُ سلة كبيرة من هذا السمك مع أننى لستُ من هواة صيد الأسماك . ولعلنى أخطأتُ فى حساب الأيام ففرغت خشية أن أجيل متأخراً عن موعدِ الحفل الذى

حسبتُ أنه في صباح ذلك اليوم نفسه ، لذلك لم يكن أمامي إلا أن أسرع .
ولكن كيف السبيلُ إلى الوصولِ إلى «بازل» والرحلة من بحيرة كُنِستانس
طويلة شاقة ومعنى هذا الحملُ من الأسماك ؟

سُرعان ما طرأت على فكرة خاطفة ، فالتقيتُ بالسَّلة في نهر الرين
وأعطيْتُها وتركْتُ ماءه المتدفقُ يحملُنَا إلى بازل ، وفي أثناء ذلك أخذتُ أهو بالصيد
فاصطدتُ تسع عشرة سمكة كبيرة بعض الشيء وتركْتُها تسبحُ أمام السَّلة
فتضاعفتُ سرعتُنَا ، حتى إذا الرحلة من مدينة كُنِستانس على البحيرة الممتدة باسمها
إلى بازل لم تستغرق إلا ساعتين فضلاً عن أنها كانت رحلة شاقة . وعند ما مررتُ
في طريقى بشلالات الرين عند « شافهوزن » التي كانت تُعرفُ أضلا باسم
« ناو هاوس » اصطدمتُ سفينتي يعض الصخور فبللتُ ثيابي ، فزاد ذلك من
اعتراف مضيقى بفضلِي .

والآن بعد خمس وعشرين سنة يُحيي صديقي هذا عيدَ زواجه الفِصِّي لهذا
أرسل إلى هدية من سمك الفلش تذكاراً بفضلِي القديم ، جاءت ومعه برميل صغير
من نبيذ التفاح وهو شرابٌ قد يكون مجهولاً لكم ، فمن كان منكم لا
يستسيغُ هذا النوع من النبيذ فإن صديقي تفضلُ فوق هذا وذاك بسَّلة من
زجاجات الشَّبابيا !

والآن أقدم لكم يا أصدقائي ويا رفاقي الأعزاء هذين الزوجين الكريمين،
ولأنهما ليؤكدان لكم أنني لم أعد جادة الحقيقة في حكايتي - والآن فإلى المائدة !

...

وهكذا اتقضت ساعاتُ كلِّها فرحٌ ومرحٌ، ألهم الضيوفُ خلالها أشهرُ
صنوفِ الطعام وتقارعت الكؤوس ، وارتفعت الحناجرُ بالفناء ، ومزج نبيذ
التفاح بالشبانيا وأكل المدعوون للمرة الأولى سمك الفلش المشهور حتى إذا
رُفعت المائدة ، وجفت الكؤوس ودّع البارون أصدقاءه ورفاقه ، إذ كان في
الفد قد عزم على شد الرحال إلى بازل ، حيث يصحبُ صديقيه الكريمين في رحلة
بين أرجاء سويسرا الجميلة .

الليلة الرابعة والعشرون

مضت سنة كاملة ، ولم ير أحدُ البارون فون مونشهاوزن في مكانه المتاد ، حتى إذا كانت هذه الليلة ظهر البارون على عتبة باب المطعم الذي اعتاد أن يقضى فيه لياليه مع أصحابه ورفاقه الأعزاء .

وكان في خلال هذا العام غائبا في أسفاره ورحلاته ، حتى إذا ما وصل إلى الوطن في الأمس لم ينقض اليوم حتى وجدَ طريقه إلى مكانه المهود .

كان ظهور البارون على غير انتظار من الجماعة ؛ فأكاد يخطر في الفرفة حتى استقبلته ماصفة من الترحيب وانهاالت عليه الأسئلة من كل جالس : من أين قديم ؟ وأين اختفى خلال هذه الفترة ؟ وماذا حدث له ؟ إلخ .

فابتسم البارون وقال :

أصدقائي ورفاقي الأعزاء :

إذا انهاالت على الإنسان عشرات من الأسئلة على هذا النحو فلا شك أنه عاجز عن الإجابة عليها جميعا في وقت واحد ، ومثله مثل من يقف تحت شجرة برفوق قد نضجت ثمارها فأصبح عاجزا عن التفضليل بينها ، كذلك ليس لي إلا أن أتحير سؤالا واحدا لأجيب عليه وينير هذا لن أعرف كيف أبتدىء وكيف أتنهى . أتسألوني من أين قديم ؟ وهذا ما سأروى لكم قصته في هذه الليلة .

أرجو ألا أشيع الفزع بينكم إذا قلت لكم إنني جئت من بلاد الهندو
إذا قصدت ذلك أمريكا.

إنني أشاهد على وجوهكم سحابة من الشك، فلعنكم لم تفهموا ما أعنيه بذلك.
نعم ياسادتي لقد عدت من أمريكا، وفي خلال العام الفائت لم أترك
التطواف بين أرجاء هذه القارة العظيمة، بينما كانت زوجتي تنزل ضيفة في
باريس على خالتها الكونتيس «فون بلو». نعم لقد عدت ياسادتي من أمريكا وإنها
لبلاذ النرائب التي لا يكاد العقل يصدقها. وكنت أود أن أزور أمريكا قبل
استكشافها إبان ذلك العصر الذي كانت فيه برية لم تتأثر بسبل الحضارة!

أما أمريكا اليوم فقد غزتها رسل التمدن الأوربي وضربت فيه بسهم وفير
حتى إن الرجل العادي من سكان الدنيا القديمة إذا حدث وزار أمريكا فإنه لا يكاد
يصدق ما يدور حوله كل يوم، وإنني لأضرب لكم مثلاً فريداً عن عجائب
السرعة التي شاهدها في تلك البلاد.

عمد أهل أمريكا إلى تعبيد طرق زراعية ممتدة بُثتوا في وسطها زوجين من
القضبان الحديدية لانهائية لطولها، وعلى هذه القضبان سيار وقافلة من العربات ربطوا
الواحدة منها بالأخرى وأداروها بقوة بخار الماء. وبدأ الناس في أمريكا يسافرون
بهذه الطريقة منذ عام ١٦٥٠^(١) وأصبحت منذ عام ١٨٦٧ الطريقة الشائعة للمواصلات

(١) الحقيقة أن أول خط حديدي أُلغى في عام ١٨٢٥ ما بين مدينة منستر ودارلنجنون في إنجلترا

ويدعوها الناس السكة الحديدية، وسوف يقلد أهل أوروبا هذا الابتكار مما قريب
وليس هذا بتجيب ولكن الغريب في الأمر السرعة الهائلة التي تسير بها
هذه القطر !

وعلى مسافة خمسة أميال انجليزية أو عشرة أعدوا مكانا للانتظار، وهم يدعون
هذا المكان « بالمحطة » ؛ ولكل محطة مُشرفٌ يدعو به بناظر المحطة وتراهما واقفاً
في صدر المكان كأنه أميرٌ من الأمراء .

وحدث مرة أن ركب هذا القطار الحديدى عند محطة من المحطات ، وما
كدتُ أعتلى الدرجات وأقفُ على باب العربى حتى تقدم إلى أحد هؤلاء النظار
وأراد أن يدفعنى ، لأنه - كما يقول - يجب أن أجلسَ فى عربى غير التى كنتُ
واقفاً أمام بابها . ولا شك أن الرجل كان وقفاً ، ثم تبادلنا الألفاظ فما كان
مبني إلا أن رفعتُ يدي لأصغعه لوقاحته ؛ ولكن فى تلك اللحظة انطلق صفيحُ
الحصان البخارى ؛ وانطلق القطار بسرعة هائلة حتى إننى عندما أردتُ أن أقبضَ
ذراعى وجدتهننى عند المحطة الثانية على بُعد ميلين ألبتة من المكان الأول ،
وإذا يدي تسقط على وجه ناظر المحطة الثانية الذى لا ذنب له، وكان هذا الرجلُ
متمحاً طيباً لذلك كان على أن أقدم اعتذارى له .

...

فى مقاطعة «الينوس» التى تمتد على نهر شيكاغو وهو النهر الذى يصب فى

بحيرة ميشيجان ، انتهى المطاف بأحد أصدقائي فاشتغل بالزراعة ، ولكن مع



الأسف لم تكن ناجحة كما كان يُؤملُ . وحدثَ عندما زُرْتُ هذا الصديق أن هبَّتْ زوبعةٌ شديدة دكَّتِ البيوت وحملتْ أخشاب السقوف الضخمة وأطارتها في الهواء كما يطيرُ الريش ، وكان من الطبيعي أن تحمل هذه الزوبعة الناسَ والحيوان فحملتنا جميعاً في الفضاء كما حملتْ معنا متين من الزنوج الأرقاء وأربعين من الهنود المستأنسين ، وبينما كنا معلقين في الهواء رأينا كيف أن

الزؤيمة اُقتلعت بزّين من الحجر وانطلقت بهما ...

وبعد أن حملتنا الزؤيمة نحو عشرة أميال إنجليزية ضوب الغرب أَلقت بنا في بعض البرارى وما أشدّ دهشتنا عند ما وجدنا الزؤيمة قد حملت إلى ذلك المكان نفسه رفاقنا وحيواناتنا، بل إننا رأينا أمام عيوننا بيوتنا بأحجارها وأخشابها التي حملتها الرياح. ولم نضع الوقت سُدى في الانتظار، إذ لم تنقض ستة أيّام حتى غرسنا مزرعة جديدة في هذا المكان وأقمنا فيها بيوتنا من جديد.

ولكن أعجب العجب هو ماجرى للبّرين؛ فهاتان البّيران يا أصدقائي ويا رفاقي الأعزاء متفورتان في الحجر وقد اتزعتا من جوف الأرض انزعاما وحملتهما الرياح دون أن تعبث بهما، ثم أَلقت بهما في المكان الجديد نفسه حتى كان من شدة الرّيح أن غرسهما غرسا في جوف الأرض ولكن الغريب في الأمر أنه عند ما بدأنا نرفع الماء من البئر الأولى ثم من البئر الثانية وجدنا الدلاء ملأى بماء كثيف غريب الشكل، فما إن رأيته حتى استولت على الدهشة إذ لم يكن هذا السائل ماء بل زيتا حجريّا - وهو الذي يدعونه بالبترو - وهو الذي يصلحون به المصابيح فترسل ضوءا أشدّ وهجا من صنوف الزيت الأخرى، ولم يكن في ذلك الوقت من كان يعرف أهمية هذا الزيت . ولم تعض تسعة أشهر وكنت إذ ذاك في مدينة نيويورك حتى وصلني خطاب من صديق هذا يُنبئني فيه كيف أنه ما قىء منذ ذلك التاريخ يبيع محصول هاتين البّيرين من البترول وأنه في طريقه ليصبح من أصحاب

الملايين . نعم قد صدقَ المثلُ القديمُ الذي يقول : إنَّ الرِّيحَ التي لا تحمِلُ معها خيراً رِيحٌ خبيثة .

وأكثر هذه الزَّاعِرِ تهبُّ في الجنوبِ لاسيما في أمريكا الوسطى ، وقد عرفت بنفسى شدة هذه الأعاصيرِ في كوبا إحدى جُزر الهند الغربية حيث ينمو أفخرُ أنواع التَّبغ ، فقد حدث مرَّة لصديق بَرَانْدِيزِي (ومعنى ذلك دودة المطر) أن إعصاراً مطيراً اختلَّ به وهو في الطريق إلى مصنعه فأن وقفَ على شتية البابِ حتى فاجأته الزُّوبعة فحلَّت جميعَ أضرار بمطقه من أغلى إلى أسفل فلما أدار وجهه من شدة الصِّدمة والذهشة ، عادت الرِّيح فمقدَّت هذه الأضرارَ في أسرع من لمح البصر ، أما عيَّنته فقد حملتها في الفضاء إلى حيث لا رجعة .

فأتمَّ تَرَوْن يا أصدقائي أن ما رويته لكم مع غرابته حقيقةٌ لا ريبَ فيها ، ولولا أنها حقيقةٌ واقعةٌ لما أمكن أن نحدث ؟

الليلة الخامسة والعشرون

في أمريكا أيها السادة ؛ كثيرا ما يزعج أهل تلك البلاد إلى الفكاهة الغريبة كما حدث مرة عند ما كنتُ في مدينة « فيلادلفيا » حيثُ عقدتُ الصُّحبة في فندق كنتُ أنزل به بسيدتين يدعى أحدهما « كوثن » والثاني « استانهوب » وكانا يقضيان المساء عادةً في لعب الورق، فقرأنا على أن الرابع يدعو رفيقه لفظور لم يسبق لأحد أن أعدّه لضيفه؛ فحسر مستر استانهوب الرهان لهذا اتفق مع رفيقه على أن يقدم هذا الفطور في صباح الغد، ولكن على ارتفاع ستة آلاف أو سبعة آلاف قدم من سطح الأرض واستضافني صديقائي لأشترك في هذه الوليمة الحبيبة. وفي الصباح الباكر اصطحبني المسير كوثن في الموعد المحدد، وفي المكان المسمى لهذه الوليمة وجدنا استانهوب في انتظارنا إلى جانب منطاد هوائي ضخم وقد رافقته طابخته التي حملت معها أدوات الطهي وصحاف الطعام، ولما اكتمل جمعنا جلس قائد المنطاد في مكانه وانطلق بنا في الفضاء. وما إن أحسست الطائية بذلك حتى علاها الفزع وانطلقت تصيح إذ كانت تلك مفاجأة لها غير متظرة، ثم إن سيدها أمرها بالهدوء بإعداد طعام لأربعة أشخاص على أن تكون في حذر إذا ما أوقدت النار حتى لا يمتد اللهب إلى كرة المنطاد فتفجر.

أخذت السيدة بعد المائدة وهي ترتمش فرقا، وكان قديد اللحم شهيا وكانت

السَّيَّانَا بِمِثَازَةٍ حَتَّى إِذَا وَصَلْنَا إِلَى ارْتِفَاعِ الْفَيْنِ مِنَ الْأَمْتَارِ تَلَفَّتْ مُضِيفُنَا وَقَالَ لِرَفِيقِي : « أَرْجُو أَنْ تَكُونَ رَاضِيًا عَنْ هَذِهِ الْوَلِيَّةِ فَإِنَّ هَذِهِ الرَّحْلَةَ الْهَوَائِيَّةَ كَلَفْتَنِي ثَلَاثُمِائَةَ جُنْيَةٍ ، أَمَّا الطَّاهِيَةُ فَإِنِّي سَأُذْفَعُ لَهَا مَائَتَيْنِ مِنَ الْجَنِيَهَاتِ مِكَافَأَةً لَهَا ، فَكَأَنَّنِي دَفَعْتُ نَعْمًا لِهَذَا الْفَطُورِ خَمْسَمِائَةَ جُنْيَةٍ ، أَرْجُو أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَافِيًا »
وَالْآنَ أَيُّهَا السَّادَةُ اسْتَوْدِعْكُمْ اللَّهُ إِلَى لَيْلَةٍ قَادِمَةٍ .

عند ذلك صاح أحد الجالسين مُبْتَسِمًا : « تَهْمَلُ يَا سَيِّدُ مَوْشَهَاوَزْنَ ، لَقَدْ كَانَ فِي نَيْتِكَ أَنْ تَحْدِثَنَا عَنْ تِلْكَ السَّفِينَةِ الْهَائِلَةِ الَّتِي أَقْلَعْتَ فِي عَوْدَتِكَ مِنْ أَمْرِيكَا »
فَأَجَابَ الْبَارُونُ وَمَا زَالَ مُنْهَكًا بِقَبْضَةِ الْبَابِ :

— نَعَمْ نَعَمْ ! وَلَكِنْ لَيْسَ لَدَيَّ مَا أَفْضَى بِهِ ، إِذْ كُلُّ مَا هُنَاكَ أَنَّ السَّفِينَةَ كَانَتْ مِنَ الضَّخَامَةِ وَالْعِظَمِ بِحَيْثُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُتَّصِرَ طَوْلَهَا مِنَ الْمَقْدَمَةِ إِلَى الدَّفْعَةِ بِالْمَيْنِ الْمَجْرُودَةِ إِلَّا إِذَا اسْتَعَانَ بِمَنْظَارٍ مُقَرَّبٍ ، وَكَانَ لِكُلِّ رَاكِبٍ أَنْ يَسْتَمِعِينَ بِمَا لَا يَظَلُّ عَنْ خَمْسَةِ مِنَ الْمَلَّاحِينَ وَثَلَاثَةِ مِنَ الصَّبَّيَّانِ يُرْسَلُهُنَّ إِلَى قِبْطَانِ السَّفِينَةِ لِلِاسْتِفْسَارِ عَنْ مِهْبِ الرِّيحِ . وَالْآنَ أَنْعَمُوا مَسَاءً

وَمَا إِنِ انْتَهَى الْبَارُونُ مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى أَغْلَقَ الْبَابَ مِنْ وَرَائِهِ ، وَأَخَذَ الْجَالِسُونَ يُنْصِتُونَ لَوْفَعِ أَقْدَامِهِ وَهِيَ تَبْتَدِدُ وَقَدْ غَالَبَتْهُمُ الدَّهْشَةُ بِسَبَبِ رَغْبَةِ الْبَارُونِ فِي الْخُرُوجِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنَ الشَّرْعَةِ ، وَلَكِنْ لَمْ تَمُضِ دَقَائِقُ حَتَّى رَأَوْا الْبَارُونَ يَمُودُ أَدْرَاجَهُ وَيَدْخُلُ عَلَيْهِمْ لِيَقُولَ بِصَوْتٍ جَدِّي :

أستبجحكم عنذاً أيها السادة ، لقد نسيتُ ما كنت أريدُ أن أحدثكم به أصلاً . لقد سألتكم عشرين مرةً عما إذا كنتم ما فتئتم تذكرون الجنرال السجوز « اسكرا بند انسكى » الذى تعرفتُ به فى « وارسو » وأنا فى طريقى إلى مدينة « بَطرَسبرج » وقد رويتُ لكم طرفاً من أخباره ، فهو الذى وضع قرصاً فضياً على نغمة مُعْجَمَتِهِ ليتسرَّب منها بخار النَبِيد إذا ما فعلت به الحُرُّ فُلَمَها ؛ لا أشكُ فى أنكم تذكرونه كما تدلُّ على ذلك هزَّة رؤوسكم ، والآن أروى لكم قصةً غريبةً عن هذا الجنرال :

عند ذلك اقترَبَ البارونُ من المائدة التى كان حولها أصحابه جالوساً وبدأ حكايتَهُ وهو واقِفٌ على قدميه وفى شىء من السرعة .

« حدثَ عند نُشوبِ الحربِ الروسيةِ التركيةِ أن كان الجنرال أحد الذين حادوا إلى الخدمةِ العسكريةِ ووُكِّلَتْ إليه مهمةٌ خاصَّةٌ ، فكانت فرقةً معسكرةً عند مدينةٍ صغيرةٍ على الحدودِ التركيةِ نفسها . أما أنا فكُنْتُ على رأسِ فرقةٍ من «الهوسار» نازلاً عند قريةٍ مجاورة . وفى ذاتِ صباحٍ قابلتُ قَلَّاحاً فى النابتة وهو فى طريقه ليجمعَ مِلءَ كيسَينِ من ثمرِ الصنوبرِ لزوجةٍ سيِّدهِ التى كانت مُغرَمةً به ، فرأيتُ أن أصحبَ هذا القَلَّاحَ فى مهمته ، وبينما كنَّا نعلأ الكيسَ إذا بصراخٍ ومهممةٍ تسترعى أسماعنا وتلا ذلك ظهورُ دُبٍ عظيمٍ الجَنَّةِ أخذ يقرُبُ من العربيةِ المَوْسُوقَةِ بالصنوبرِ وطلقَ يُطعِمُ نفسه منه بشهيةٍ زائدة ؛ وكُنَّا إذ ذاك نبتعدُ عن مكان

العربة التي تركت فوقها بندقيتي ، أما الدب فوقف هادئاً وكأنه ينتظر أن
تقدم له حِملاً آخر من الصنوبرا



وفي أثناء ذلك كان الفلاح قد أخرسته الدهشة ، أما فرسه فقد تولّاهما
الفرع فراح تذبّ في مكانها وتحاول الإفلات وتدور بمنّة ويسرة منذ أن
أحسّت باقتراب الدب منها ، فلما أن عاد الفلاح إلى صوابه صاح بها فانطلقت مُندفعة
إلى الطريق تحمل الدب الذي لم يحاول الوئيب من العربة المنطلقة بل اكتفى
بأن عاد إلى صراخه وعويله . ولعلّ ذلك كان سبباً لاندفاع الفرس التي كانت تجري
وكانها في سباق حتى اندفعت إلى المعسكر وهي تجرّ العربة وعليها هذا الدب

وهو لا يفتأ يصرخ ويُقولُ.

وفي تلك الساعة كانت الجنودُ مصطفةً في انتظار قدوم الجنرال اسكرابندانسكى للتفتيش عليها، كما وقفتْ مئات من النظارة لمشاهدة هذا العرض، وعند ما لححت هذه الجموعُ عربيةً قادمةً من بعيد وقد غمرتها سحابة من التراب أسرع رجالُ الفرقة الموسيقية إلى آلاتهم وأسرع حاملو البيارق إلى أعلامهم؛ وعند ما اقتربت الزُبعة الرئولية وبلغ الأسماع صوت العربةِ المقترِبةِ، صاح قائدُ الفرقة «إنَّ الجنرال!» عند ذلك بدأت الفرقةُ الموسيقيةُ بعزف النشيد الرُومى الوطنى وأخذ حاملو البيارق في تلويح أعلامهم، ودوت في الفضاء صيحةُ آلافٍ من الحناجر تُنادى: ليحيا صاحب السعادة الجنرال «فون اسكرابندانسكى» ليحيا!

وفي وسط هذا التهليل والتكبير وبين صفوف الجنود والنظارة اندفعتِ الفرسُ، ثم كبت على الأرض! وبين أكياس الصنوبر التى فرغ نصفها اتصب الدب وقد أصمته الدهشة، وراح يَلْبُ النظر حواله!

أما أنا وصاحب العربة فطفقنا نجرى وراءها، ولكن الفلاح سرعان ما عاد على أعقابهِ وتركنى أواميلُ السير حتى وصلتُ مقطوع الأقاليم إلى المسكر فى الدقيقَةِ التى وصلتُ فيها العربةُ، وقبل أن أتعمَل قبضتُ على الدبِّ بيدٍ واحدة ورَفَعْتُهُ فى الهواء وصيحت: ليحيا صاحب السعادة الجنرال! ثم ألقيتُ به على الأرض فبهشت أضلاعه ودكت عنقه!

عند ذلك صمّت الموسيقى ، وصمّت الحفّاف ولم يرتفع إلا صوت واحد
كسر هذه هذا الشكون ، ذلك صوت قائد الفرقة الذي أخذ ينادى بأعلى صوته
« إنه البارون فون مونشهاوزن » وليس صاحب السعادة « اسكرايندانسكى »
فأجابه أحد الجنود :
« لا ياسيدى إنه اللب صاحب الصنوبر ! »

...

وعندما كفّ الجالسون عن الضحك والتّهلّيل انحنى البارون شاكرًا ، وقبل
أن يُنادِر المكان تلقّت حوله وقال :
« عقابًا لما اترفته هذا اللب الجرىء ، الذى حاول أن يقتصب اسم صاحب
السعادة رأيت أن أحطّطه وأحشّوه تبتًا . فإذا حدث وزار أحدكم المتحف
الحيوانى فى مدينة « كييف » فسوف يرى بعينه هذا اللب .
والآن أنعموا مساء ! »



Bibliotheca Alexandrina



0415752

